محمد رسول الله

صلى الله عليه وسلم

منهج ورسالة - بحث وتحقيق

الجزء الثالث

تأليـــف:

فضيلة الشيخ / محمد الصادق إبراهيم عرجون

عميد كلية أصول الدين بجامعة الأزهر سابقًا

أبيض

بسم الله الرحمن الرحيم

محمد ﷺ

في رحيله إلى الشام

قصة الراهب وما فيها من الآيات والإرهاصات:

ولما بلغ محمد ﷺ اثنتي عشرة سنة كان عمه أبو طالب يتهيأ للرحيل في تجارته إلى الشام، فتعلَّق به ليأخذه معه فرقَّ له أبو طالب واصطحبه وقال: واللهِ لأخرُجَنَّ به معي ولا أُفارقه ولا يفارقني أبدًا. روى الترمذي في جامعه عن أبي موسى الأشعري قال: خرج أبو طالب إلى الشام وخرج معه النبي ﷺ في أشياخ من قريش، فلمَّا أشرفوا على الراهب هبطوا فحلوا رحالهم، فخرج إليهم الراهب وكانوا قبل ذلك يمرُّون به فلا يخرج إليهم ولا يلتفت لهم، فأتاهم وهم يحلون رواحلهم، فجعل يتخللهم حتى جاء فأخذ بيد رسول الله ﷺ وقال: هذا سيد العالمين، فقال له أشياخٌ من قريش: ما علمك؟ فقال: إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق شجر ولا حجر إلا خرَّ ساجدًا، ولا يسجد إلا لنبي، وإني أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه مثل التفاحة، ثم رجع فصنع لهم طعامًا فلما أتاهم به وكان هو (رسول الله) في رعية الإبل، قال: أرسلوا إليه، فأقبل وعليه غمامة تظلّه، فلما دنا من القوم وجدهم قد

سبقوه إلى فيء الشجرة، فلما جلس مال فيء الشجرة عليه، فقال: انظروا إلى فيء الشجرة مال عليه، قال: فبينما هو قائم عليهم وهو يناشدهم ألا يذهبوا به إلى الروم، فإن الروم إذا رأوه عرفوه بالصفة فيقتلونه، فالتفت فإذا سبعة قد أقبلوا من الروم، فاستقبلهم فقال: ما جاء بكم؟ قالوا: جئنا لأنَّ هذا النبي خارج في هذا الشهر، فلم يبق طريق إلا بعث إليه بأناس، وإنّا قد أُخبرنا بخبره، فبُعثنا إلى طريقك هذا، فقال: هل خلفكم أحد هو خير منكم، قالوا: إنما اخترنا خيرة لطريقك هذا، قال: فأتاهم -يقصد القرشيين- فقال لهم: أفرأيتم أمرًا أراد الله أن يقضيه هل يستطيع أحد من الناس ردّه؟ قالوا: لا، فبايعوه وأقاموا معه، قال: فأتاهم - يقصد القرشيين- فقال لهم: أنشدكم الله أيكم وليّه؟ قالوا: أبو طالب، فلم يزل ينشده حتى ردَّه أبو طالب، وبعث معه أبو بكر بلالاً وزوَّده الراهب من الكعك والزيت.

رواة الحديث ومخرجوه ودرجته من الحُسن أو الصحة:

قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وقد صحَّح الحاكم هذا الحديث، ورواه البيهقي وأبو بكر الخرائطي وابن عساكر، قال ابن كثير في البداية: وهكذا رواه غير واحد من الحفاظ من حديث أبي نوح عبد الرحمن بن غزوان الخزاعي مولاهم، ويقال له الضبي ويعرف بـ(قراد)، سكن بغداد وهو من الثقات الذين أخرج لهم البخاري ووثَّقه جماعة من الأئمة والحفاظ ولم أرَ أحدًا جرَّحه، ومع هذا في

حديثه هذا غرابة. قال عباس الدوري: ليس في الدنيا أحد يُحدِّث به غير قراد أبي نوح وقد سمعه منه أحمد بن حنبل -رحمه الله- ويحيى بن معين لغرابته وانفراده.

قال ابن كثير: قلت: فيه من الغرائب أنه من مرسلات الصحابة، فإن أبا موسى الأشعري إنما قدم سنة خيبر سنة سبع من الهجرة، وهذه القصة كانت ولرسول الله ﷺ من العمر اثنتا عشرة سنة، ولعل أبا موسى تلقاه من النبي ﷺ فيكون أبلغ أو من بعض كبار الصحابة رضي الله عنهم، أو كان هذا مشهورًا مذكورًا أخذه من طريق الاستفاضة، الثاني: إن الغمامة لم تذكر في حديث أصح من هذا، الثالث: إن قوله: "وبعث معه أبو بكر بلالاً"، إن كان عمره عليه الصلاة والسلام -إذ ذاك- اثنتي عشرة سنة، فقد كان عمر أبي بكر إذ ذاك تسع سنين أو عشر وعمر بلال أقل من ذلك فأين كان أبو بكر إذ ذاك؟ ثم أين كان بلال؟ كلاهما غريب، اللهم إلا أن يقال: إن هذا كان ورسول الله ﷺ كبيرًا إما بأن يكون سفره بعد هذا، أو إن كان القول بأن عمره كان إذ ذاك اثنتي عشرة سنة غير محفوظ، وضعَّف الحافظ الذهبي الحديث لقوله في آخره: "وبعث معه أبو بكر بلالاً"، فإن أبا بكر -إذ ذاك- لم يكن متأهلاً ولا اشترى بلالاً، قال الحافظ ابن حجر في الإصابة: الحديث رجاله ثقات، وليس فيه منكر سوى هذه اللفظة فتُحمل على أنها مدرجة فيه مقتطعة من حديث آخر وهْمًا من أحد رواته.

بحثٌ وتوجيه لما نُقد من ألفاظ الحديث:

جهابذة المحدثين وحذاق الناقدين قبلوا هذا الحديث ولم يردوه، وأعمقهم تعمقًا وأشدهم تشددًا وهو الحافظ الذهبي كان قصاراه أنه ضعفه من جهة ما فيه من كلمة ظنها لا تتفق مع تاريخ الواقعة، وقد خرّج الحافظ ابن حجر هذه الكلمة باحتمال أنها ليست من هذا الحديث وأنها مدرجة فيه مقتطعة من حديث آخر، وذهب ابن كثير في تخريجها إلى احتمال أن القصة كلها كانت ورسول الله ﷺ كان كبيرًا ليتفق سنه مع ما جاءت به الرواية من إرسال أبي بكر الصديق بلالاً معه في طريق عودته، وهذا في نظر هؤلاء الناقدين يقتضي أن يكون أبو بكر رجلاً متأهلاً وبلال مملوكًا له.

ولا ندري ما الذي يوجب ذلك؟ وما الذي يُبْعد أن يكون أبو بكر خرج في هذه السفرة وهو غلام على مثل ما خرج عليه رسول الله ﷺ من تعلقه بعمه أبي طالب، فأخرجه معه صبابة به ومحبة له ورقة عليه، فيكون بعض آل أبي بكر أخرجه معه على نحو قريب من هذا، أو يكون أبو بكر قد آجر نفسَه لبعض تجار قريش يكون معه حارسًا أو مناولاً أو رسولاً كالذي نراه في متعارف الناس ومتصرفاتهم، وحينئذ فلا استغراب في وجوده في هذه الرحلة. ونظرًا لتقارب سنه من سن رسول الله ﷺ كان بينهما من تقارب القلوب والإلفة ووشائج الصداقة ما يكون

بين اللِّدَات والأتراب[١]، ولا سيما إذا توافقت المشارب في السفر والغربة، ولعل هذا كان أول شعاع من الضياء انبثق في أفق صداقتهما الخالدة.

وأما بلال فالاحتمال في وجوده في هذه السفرة أرجح وأقرب، إذ ما المانع أن يكون قد خرج في هذه السفرة على صغره ليخدم بعض سادته إذا كان قد استُرق منذ طفولته، أو يكون خرج أجيرًا مع بعض أهله أو غيرهم، ولما عرض حديث الراهب عن رسول الله ﷺ ونَصَحَ الراهبُ عَمَّهُ أبا طالب ليرجع به إلى بلده خشية عليه من أعدائه الذين يبغونه الغوائل[٢]، رغب أبو بكر إلى بلال رغبة رفيق إلى رفيق ورضي وليٌّ بلالٍ إسعادًا لأبي طالب أن يكون بلال في صحبة رفيقهما محمد في أوبته ليؤنسه، وكانت حال بلال تسمح بهذه الصحبة، فرحب بلال ورضي مغتبطًا أن يكون الرفيق الأنيس لمحمد ﷺ.

وهذا وضعٌ طبيعي للحادث لا يحتاج إلى أن يتأهل أبو بكر أو يملك بلالاً أو يُوهِّم الرواة.

قصة الغمامة:

على أن الطعن في هذه الكلمة من الحديث لا يضير قصة تظليل الغمامة وما ذكر معها من عجائب كونية وخوارق معجزة؛ لأن جميع الرواة متفقون على صحتها وتوثيق

(١) اللِّدات جمع لدة، ولدة الرجل تِربُه. والترب المماثل في السن. (المجلة)

(٢) الغوائل: الدواهي. (المجلة)

رواتها، وقد قدمنا من البحث ما يكفي في تزييف رأي المتشبثين بسنن الحياة العامة ومعروف العقول وقضايا العلم والمنطق ليخلصوا من ذلك إلى جحود المعجزات الكونية في سيرة محمد ﷺ، بيد أن بعض الباحثين المتحررين من عبودية الاستشراق والتجديد الزائف وقفوا في بحوثهم مع الإنصاف لعقولهم في فهم عوالم الغيب وسنن الله تعالى في الملأ الأعلى، يقول أحد المفسرين في تفسير قول الله تعالى:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾

(البقرة: ٣٤)

يقول: "من هم الملائكة؟ من هو إبليس؟ كيف قال لهم الله؟ كيف أجابوا؟ أين كان هذا الحوار؟ ومتى كان؟ وما الأسماء التي علمها الله لآدم؟ مَنْ الذين عرضهم الله على الملائكة فلم يعرفوا أسماءهم؟

هذه وأمثالها في القرآن الكريم مما لم يرد فيه تحديد ولا تفصيل.. كله غيب من الغيب الذي أسلفنا أن العقل البشري عنه محجوب، وأن الإيمان به صيانة للطاقة الفكرية من أن تتبدد في غير مجالها ومن أن تُنفَق عبثًا بلا جدوى، ومتى آمن العقل بالبديهة الأولى، بديهة أن الجزء لا يمكن أن يدرك الكل، وأن الذي خلق أعلم بما خلق ممن خلق. متى

آمن العقـل بالقدرة المطلقة وبالعلم المطلـق فأولى به إذن أن يدع هذا الغيب الذي لا يملك وسيلة لإدراكه.. أن يدعه لعالم الغيب والشـهادة، لا استسـلامًا جاهلاً أعمى، ولكن تسليمًا بالبديهـة العقلية الأولى، وإذا كان العقـل لا يدرك هذا الغيب ولا يجد إلى الاطلاع عليه سـبيلاً فليس معنى عجزه أن يتبجح وينكـر، فالإنكار حكم يحتاج إلى برهان، واحترام العقل ذاته يقتضيـه ألا ينكر إلا وقد أحاط علمًا بما ينكره واسـتيقن من عدم وجوده.

إن الاستسـلام للوهم والخرافة شـديد الضـرر والخطورة، ولكـن أخطر منه وأضر التنكـر للمجهول كله، وإنكاره؛ لأنه تنكـر لتلك البديهـة الأولى، وإنكار لطبيعـة العقل وحدوده، وإقحـام لهذا العقـل في غير مجالـه، وتبديد لطاقتـه في غير مجالها، وتطاول منه على حكم لا يملك أسانيده" . اهـ.

هذا كلام واضح مستقيم الحجة بيِّن المحجة، يستطيع كل قـارئ وكل باحث أن يضعه إلى جانـب كل آية كونية ومعجزة خارقة تثبـت صحة الرواية ووقوعها، فإذا هـي حقيقة تاريخية يجب الإيمان بها دون توقف مع سـنن الحياة ومعروف العقول وقضايا العلم ومقاييس المنطق؛ لأن كثيرًا من الحقائق الواقعية ولا سـيما الحقائق الروحية والمعاني الغيبية العليا التي تتعلق بالله تعالى وصفاته وأسـمائه الحسنى، ومظاهر ذلك في الحياة والأحيـاء وما يتصل به من النبوة والرسـالة والوحي والملائكة

والجن وسائر عالم الغيب والملأ الأعلى لا يخضع لسنن الحياة التي نعرفها ولا لمعارف العقول التي وصلت إليها.

وحديث الغمامة أجمع عليه رواة السيرة، ولم يذكر في كتب الحديث بأصح من رواية الترمذي المتقدمة، غير أن روايات أصحاب السير جاءت كلها خالية من الكلمة التي نُقد من أجلها حديث الترمذي.

أوفى وأبسط رواية وفيها تسمية الراهب:

روى ابن سعد في الطبقات من طريق عبد الله بن جعفر الزهري وداود بن الحصين قالا: لما خرج أبو طالب إلى الشام وخرج معه رسول الله ﷺ - وهو ابن ثنتي عشرة سنة - فلما نزل الركب بصرى من الشام وبها راهب يقال له بَحِيرَا في صومعة له، وكان علماء النصارى يكونون في تلك الصومعة يتوارثونها عن كتاب يدرسونه، فلما نزلوا بِبَحِيرَا وكانوا كثيرًا ما يمرون به لا يكلمهم، حتى إذا كان ذلك العام ونزلوا منزلاً قريبًا من صومعته قد كانوا ينزلونه قبل ذلك كلما مروا، فصنع لهم طعامًا ثم دعاهم، وإنما حمله على دعائهم أنه رآهم حين طلعوا وغمامة تظل رسول الله ﷺ من بين القوم حتى نزلوا تحت الشجرة، ثم نظر إلى تلك الغمامة أظلَّت تلك الشجرة واخضلَّت أغصان الشجرة على النبي ﷺ حين

استظل تحتها[3]، فلما رأى ذلك نزل من صومعته وأمر بذلك الطعام فأتى به وأرسل إليهم فقال: إني قد صنعت لكم طعامًا يا معشر قريس وأنا أحب أن تحضروه كلكم ولا تخلفوا منكم صغيرًا ولا كبيرًا حرًّا ولا عبدًا، فإن هذا شيء تكرموني به، فقال رجل: إن لك لشأنا يا بحيرا، ما كنت تصنع بنا هذا فما شأنك اليوم؟ قال: فإني أحببت أن أكرمكم ولكم حق، فاجتمعوا إليه وتخلَّف رسول الله ﷺ من بين القوم لحداثة سنه - ليس في القوم أصغر منه في رحالهم - تحت الشجرة، فلما نظر بحيرا إلى القوم فلم يرَ الصفة التي يعرف ويجدها عنده، وجعل ينظر ولا يرى الغمامة على أحد من القوم ويراها متخلفة على رسول الله ﷺ قال بحيرا:

يا معشر قريش لا يتخلفن منكم أحد عن طعامي، قالوا: ما تخلف أحد إلاّ غلام هو أحدث القوم سنًّا في رحالهم، فقال: ادعوه فليحضر طعامي، فما أقبح أن تحضروا ويتخلف رجل واحد مع أني أراه من أنْفَسِكُم، فقال القوم هو والله أوسطنا نسبًا وهو ابن أخي هذا الرجل - يعنون أبا طالب - وهو من ولد عبد المطلب، فقال الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف: والله إن كان بنا للؤم أن يتخلف ابن عبد المطلب من بيننا، ثم قام إليه فاحتضنه وأقبل به حتى أجلسه على الطعام والغمامة

(3)يقال للثوب إذا ابتل: قد اخضل، ويقال لليل إذا أقبل طِيبُ برده: قد اخضل، والمراد بقوله: (اخضلت أغصان الشجرة) زاد ظلها الذي يدفع الحر. (المجلة)

تسير على رأسه، وجعل بحيرا يلحظه لحظًا شديدًا وينظر إلى أشياء في جسده قد كان يجدها عنده من صفته.

فلما تفرقوا عن طعامهم قام إليه الراهب فقال: يا غلام أسألك بحق اللات والعزى إلا أخبرتني عما أسألك؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا تسألني باللات والعزى فوالله ما أبغضت شيئًا بغضهما». قال: فبالله إلاّ أخبرتني عما أسألك عنه؟ قال: سلني عما بدا لك، فجعل يسأله عن أشياء من حاله حتى نومه، فجعل رسول الله ﷺ يخبره فيوافق ذلك ما عنده، ثم جعل ينظر بين عينيه، ثم كشف عن ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضع الصفة التي عنده، فقبَّل موضع الخاتم.

وقالت قريش: إن لمحمد عند هذا الراهب لقدرًا، وجعل أبو طالب لِمَا يرى من الراهب يخاف على ابن أخيه، فقال الراهب لأبي طالب: ما هذا الغلام منك؟ قال أبو طالب: ابني قال: ما هو بابنك، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حيًا، قال: فابن أخي، قال: فما فعل أبوه؟ قال: هلك وأمه حبلى به، قال: فما فعلت أمه؟ قال توفيت قريبًا، قال: صدقت، ارجع بابن أخيك إلى بلده واحذر عليه اليهود، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما أعرف ليبغنه عنتًا، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم نجده في كتبنا وما روينا عن آبائنا، واعلم أني قد أديت إليك النصيحة.

فلما فرغوا من تجارتهم خرج به سريعًا. وكان رجال من

اليهود قد رأوا رسول الله ﷺ وعرفوا صفته فأرادوا أن يغتالوه، فذهبوا إلى بحيرا فذاكروه أمره فنهاهم أشد النهي، وقال لهم: أتجدون صفته؟ قالوا: نعم، قال: فما لكم إليه سبيل، فصدقوه وتركوه، ورجع به أبو طالب فما خرج به سفرًا بعد ذلك خوفًا عليه. وذكر ابن سعد من طريق عبد الرحمن بن أبزى، قال الراهب لأبي طالب: "لا تخرجنَّ بابن أخيك إلى ما هاهنا، فإن اليهود أهل عداوة، وهذا نبي هذه الأمة وهو من العرب، واليهود تحسده تريد أن يكون من بني إسرائيل، فاحذر على ابن أخيك". ورواية ابن أبزى كالتكملة لرواية الزهري وابن حصين المطولة وهي أوفى الروايات وأضبطها في هذا الباب، وقد رواها الطبري وابن هشام وابن عساكر والبيهقي وأبو نعيم وابن الأثير وأبو الفداء وجم غفير مع اختلاف طفيف في بعض ألفاظها، وقد اخترنا رواية محمد بن سعد لحسن سياقتها ولطف مأتاها واستيفائها ما تبعثر في مجموع الروايات سواها.

رواية أخرى لابن سعد تختلف في سياقها مع الرواية السابقة:

وفي حديث ابن سعد من طريق محمد بن عقيل رواية تختلف مع هذه الرواية اختلافا بيِّنا وليس فيها ذكر لقصة الغمامة، قال: أراد أبو طالب المسير إلى الشام، فقال له النبي ﷺ: «أي عم إلى من تخلفني هاهنا؟ فما لي أم تكفلني

ولا أحـد يئويني» فرقَّ له ثم أردفه خلفه فخرج به فنزلوا على صاحب ديـر ، فقال صاحب الدير : ما هذا الغلام منك ؟ قال : ابني ، قال : ما هو بابنك ولا ينبغي أن يكون له أب حي ، قال : ولِـم ؟ قـال : لأن وجهه وجه نبي ، وعينه عيـن نبي ، قال : وما النبي ؟ قال الذي يوحى إليه من السماء فينبئ به أهل الأرض ، قـال : الله أجل ممـا تقول ، قال : فاتق عليـه اليهود ، ثم خرج حتـى نزل براهـب صاحب دير أيضًـا ، فقال : ما هـذا الغلام منك ؟ قال : ابني قال : ما هو بابنك وما ينبغي أن يكون له أب حي ، قـال : ولم ذلك ؟ قال : لأن وجهه وجـه نبي وعينه عين نبي ، قال أبو طالب : سـبحان الله ، الله أجلّ مما تقول ، وقال : يا ابن أخي ألا تسـمع مـا يقولون ؟ قال : «أي عـم لا تُنْكر لله قدرة» .

اختلاف الروايتين والراجح منهما:

هذه الرواية تذكر الوسـيلة التي نفـذ بها رجاء محمد عليه السـلام إلى قلب عمه فرقَّ له وصحبه في سـفره ، وهي وسيلة فيها من الاسـتعطاف والاسـترحام ما يثيـر العواطف ويحرك الرحمة ، وأي شـيء أنفذ إلى قلب أبي طالب الذي تخيره عبد المطلب دون سـائر بنيه وصيًّا علـى محمد يكفله ويرعاه من قول محمد عليه السـلام : «أي عم إلى من تخلفني هاهنا ؟ فما لي أم تكفلني ولا أحد يئويني» .

وفي هذه الرواية أن أبا طالب مرّ براهب صاحب دير فحدثه

عن ابـن أخيه وذكر له أنـه النبي المنتظر، فسـأل أبو طالب: وما النبـي؟ وأنّى لأبي طالب وغطارفة قريش أن يعلموا شـيئًا عـن النبوة والنبي؟ وهم في شـغل من وثنيتهم المسـتحجرة، فلمـا بيَّـن له الراهب معنى النبي وأنه هـو الذي يوحى إليه من السـماء فينبئ أهل الأرض اسـتعظم ذلك؛ لأنـه مربوط العقل والـروح بالأرض، فلا يمكـن له أن يعقل صلة أحد من البشـر بالسماء، وتذكر الرواية أنه مر براهب آخر فجرى له معه مثل ما جرى مع الراهب الأول، ولكنه في هذه المرة التفت إلى ابن أخيـه معجبًا: يا ابن أخي ألا تسـمع ما يقولون؟ ولكن محمدًا فـي طفولته كان ذا قلب يفقه وعقل واسـع الأفـق درَّاك، فقال لعمـه: «أي عم لا تنكر لله قـدرة» وهي كلمة العقل الذي أعده الله منذ برَأه لفهم الحقائـق العليا والمعاني الإلهية التي تصله في تفكيره بعالم السماء، وأي عجب أن يتفضل خالق السماء والأرض والإنـس والجـن والملائكـة فيوحي بكلمتـه إلى من يصطفيه من خلقه رسولاً يبلغها عنه إلى من يشاء؟ بل العجب كل العجـب ألا يفعـل ويترك خلقَه يتعبـدون لأحجار لا تبصر ولا تسمع ولا تغني عنهم من الله شيئًا، وتفكير أبي طالب هذا -وهو من سادات قريش أرجح قبيلة في العرب ميزانًا- يطلعنا على لون من حياة الجاهلية التي كان يحياها العرب قبل مشرق الإسـلام، فالجاهلية الجاهلة تعظّم الله عن أن يتصل بخلقه عن طريـق وحيه ولا تعظمه عـن التقرب إليه بعبادة الأحجار؟ هذا

هو العجب يا ابن عبد المطلب، فلا تُنْكر لله قدرة.

وليس في هذه الرواية ما يفيد أنها رواية الراهب بحيرا التي تذكر فيها قصة تظليل الغمامة وغيرها من العجائب الكونية والخوارق المعجزة، ويميل بنا الظن إلى أنها رواية مستقلة في سفرة كانت قبل سفرة الراهب بحيرا، ويرشح ذلك أن أبا طالب كفل رسول الله ﷺ وسنه ثماني سنين، وسفرة بحيرا تذكر روايتها أن سن محمد عليه السلام كانت فيها اثنتي عشرة سنة، ويبعد جدًا أن يبقى أبو طالب في مكة أربع سنوات لا يرحل فيها بتجارته وهو رجل قليل المال كثير العيال في حاجة إلى العمل المتواصل في تجارته ليحصل نفقات أولاده وأسرته وواجبات مكانه في قومه، وأيضًا فإن هذه الرواية اشتملت على هذه الكلمة التي توسل بها محمد عليه السلام إلى قلب عمه ليصحبه معه، وهي أقرب إلى أن تكون في مبدأ كفالته له لصغر سنه، وجِدَّة أحزانه على جَدِّه وأمه، أما إذا بلغ اثنتي عشرة سنة فقد اشتد عوده ومرن على العمل، فتبعد أن تكون وسيلته إلى عمه هذا اللون من الاستعطاف الرقيق الرحيم، ولعل رغبة محمد عليه السلام في سفرة الراهب بحيرا كانت لقصد مشاركته في العمل التجاري تمرينًا ومساعدة لعمه؛ لأن سنه -إذ ذاك- كانت تؤهله للمشاركة والتمرين.

***

أثر هذه الرحلة في نفس محمد ﷺ:

لم يكن من المعهود في حياة الناس ولا سيما الذين أوتوا عقولاً لمَّاحة وقلوبًا يقظة واعية وأرواحًا مشرقة مضيئة أن تمر بهم أحداث في طريقهم -وهم بعيدون عن الجو الطبيعي والاجتماعي الذي عاشوا بين جنباته- ولا يكون لهذه الأحداث أثر في أنفسهم، خصوصًا إذا كانت الأحداث تمسهم من قريب أو بعيد، فلا بد أن سفر محمد ﷺ إلى الشام كان ذا أثر في نفسه، فهو قد رأى قومًا غير قومه وعادات غير عاداتهم وتفكيرًا غير تفكيرهم وعقائد غير عقائدهم ومتعبدات غير متعبداتهم وأخلاقًا غير أخلاقهم ومعيشة غير معيشتهم وجوًا غير جوهم وبلادًا غير بلدهم، وجرت أحاديث وأحداث كان هو محورها وقطب دائرتها، وكان محمد ﷺ من الذكاء والفطانة ولقانة القلب[٤] ولطف الخلق وإشراق الروح وضياء العقل وثقوب الذهن ورجاحة التفكير بالمكان الأرفع، فلا يمكن أن تمر به هذه الصور ثم لا تترك أثرًا في نفسه يرجع به إلى بلده ويأخذ حيزًا من حياته وتفكيره، ولكنه الأثر الذي تتسع له حياة طفل في الثانية عشرة من عمره، نشأ نشأة صقلها اليتم وهذبها كرم النحيزة[٥] وشرف الأصل وطهارة الأعراق، وعزة المنبت،

---

(٤) لقن الرجلُ الشيءَ يلْقَنَه لَقنًا إذا فهمه، والاسم: اللَّقانة. (المجلة)

(٥) النحيزة الطريق المتميز. انظر: (تهذيب اللغة) مادة (ن. ح . ذ). (المجلة)

مع رعاية الله وحفظه عن التدنس بدنس البيئة الجاهلية وأوضارها.

عاد محمد ﷺ إلى مكة من رحلته وقد علم ما تحدث به الرهبان عنه مما دعا عمه إلى الإسراع به خوفًا عليه من غوائل اليهود، فأي صورة ارتسمت في نفس محمد ﷺ لهذه الأحاديث التي تتحدث عن النبوة والوحي، وعن هذا الغلام اليتيم الأمي الذي سيكون نبي هذه الأمة، فما النبوة؟ وما الوحي؟ ومتى؟ وكيف؟ هذه أسئلة من الممكن القريب أن تكون دارت في تفكير محمد عليه السلام وهو عائد إلى مكة، وهو يرى أهلها يَسبَحون في عمياء الوثنية الجاهلة البليدة، وهو يعتزلهم في أعيادهم ومواسمهم، وينأى بجانبه كارهًا مبغضًا لأصنامهم راثيًا لأحوالهم متعجبًا من ضلال عقولهم، ولكن هل حظي محمد عليه السلام من داخل نفسه أو مما يحيط به من عوامل وعوالم بجواب عن هذه الأسئلة؟.

ليس في حياته ﷺ قبل البعثة ما يشعر بشيء سوى أنه وُجِّه إلى لون من الحياة يملؤها الإحساس بعظمة الكون وعظمة مدبره جلَّ شأنه، والشعور بسلطان قدرته المبسوط على الوجود، ومن هنا كان جوابه على تعجيب عمه له من أقوال الرهبان وأحاديثهم عنه وعن نبوته «أي عم لا تُنكَر لله قدرة».

تَسَبُّبه لعَيْشه

ورعيه عليه السلام الغنم

حكمة توفيقه ﷺ لهذا العمل في مقتبل رجولته:

ومــن هنــا أيضًا كانت عزلته عــن حياة قومــه، تلك الحياة الصاخبــة الجوفاء، ومن هنا كان ميلــه إلى الصحراء وفضائها الذي لا يتناهى، فما أشـبه هذه الصحراء في امتدادها بالفكرة التـي تملأ نفس محمد عليه السـلام، ومن هنــا كان ميله إلى الهــدوء تحــت ظــلال الأشـجار أو على قلــل الجبــال، ولكن محمــدًا عليه الســلام شــاب يســتقبل الرجولية فلا بــد له أن يعمل ليعيش شــريفًا كريمًا، فحسب عمه وما يحمل من ثقل عياله، وحســبه ما أسـبغ عليه من حب ورعاية أبوية منذ حفظ وصية جده فيه، فليعمل محمد ﷺ بنفســه وليسع ليعيش من كده، فهو شــاب كريم الأخلاق قوي البنيان قويم السيرة أمين محبــوب بين قومــه، كلهم يوده ويحــب أن يعمل معه، ولكن أي عمــل هذا الذي يرضي هدوء محمد ﷺ؟ إنه وهو طفل في المهد كان يخرج في بيداء بني ســعد مع إخوته ولداته يرعون الغنم، فما أيســر هــذا العمل ومــا أقربه إلى نفســه، إنه عمل يتيح له الهدوء الذي تتطلبه نفســه الكريمة، ويتيح له المتعة بجمــال الصحــراء، ويتيح له التطلع إلــى مظاهر جلال الله في عظمة الخلق، ويتيح لــه مناجاة الوجود في هدأة الليل وظلال

القمر ونسمات الأشجار، ويتيح له لونًا من التربية النفسية من الصبر والحلم والأناة والرأفة والرحمة والعناية بالضعيف حتى يقوى، وزم قُوَى القوي حتى يستمسك للضعيف ويسير بسيره[٦]، وارتياد مشارع الخصب والري[٧]، وتجنب الهلكة ومواقع الخوف من كل ما لا تتيحه حياة أخرى بعيدة عن جو الصحراء وهدوئها، وسياسة هذا الحيوان الأليف الضعيف.

وهذا لون من الحياة اختاره القدر الإلهي لكل من اصطفاهم الله لرسالته في سياسة الخلق وتعليمهم شرائع الحياة الصالحة وأدب العبودية ومعرفة الخالق ودلائل قدرته في صنائعه، وقد ذكر القرآن قصة موسى عليه السلام مع بنتي الرجل الصالح وسقيه أغنامهما، وانتهاء القصة إلى تأجيره نفسه ثماني حجج يرعى فيها أغنام هذا الشيخ، الذي تذكر الرواية التاريخية أنه شعيب نبي الله عليه السلام، وذكر نبينا محمد ﷺ عددًا من الأنبياء عملوا في شبابهم رعاة للغنم، ففي الحديث الصحيح الذي رواه البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «ما بعث الله نبيًا إلا رعى الغنم» فقال له أصحابه: وأنت يا رسول الله؟ قال: «وأنا رعيتها لأهل مكة بالقراريط».

وقد أفاد محمد عليه السلام من هذا العمل الكريم خبرة

(٦) زم الشيء: ضبطه والتحكم فيه، ومنه الزمام وهو حبل يتم به التحكم في حركة الجمل. (المجلة)

(٧) المراد: مواطن الخصب. (المجلة)

بشئون البادية ونباتها، فقد روي أن بعض أصحابه مر عليه بثمر الأراك فقال لهم: «عليكم بما اسود منه، فإني كنت أجتنيه إذ أنا راعي الغنم» قالوا: يا رسول الله ورعيتها؟ قال: «نعم، وما من نبي إلا قد رعاها». وعن جابر بن عبد الله من حديث الزهري قال: كنا مع النبي ﷺ نجني الكباث[٨] فقال: «عليكم بالأسود منه فإنه أطيبه فإني كنت أجنيه، إذ كنت أرعى الغنم»، قلنا: وكنت ترعى الغنم يا رسول الله؟ قال: «نعم، وما من نبي إلا قد رعاها». وروى ابن سعد قال: كان بين أصحاب الغنم وبين أصحاب الإبل تنازع، فاستطال عليهم أصحاب الإبل، فبلغنا أن النبي ﷺ قال: «بعث موسى عليه السلام وهو راعي غنم، وبعث داود عليه السلام وهو راعي غنم، وبعثت وأنا أرعى غنم أهلي بأجياد»[٩].

***

(٨) الكباث: نضيج شجر الأراك.

(٩) أجياد: مكان بمكة كان مخصبًا.

محمد ﷺ بين أترابه

كان ﷺ مثلًا أعلى لكمال الشباب ومكارم الأخلاق:

كان محمد ﷺ في طفولته طفلًا كأحسن ما يكون الأطفال ذكاء ونشاطًا، وطهارة نفس وصفاء قريحة وتوقد ذهن وسرعة بديهة، وكان في شبابه شابًا كأفضل ما يكون الشباب رجاحة عقل وقوة أيد واستواء بنية ودماثة خلق، فهو في طفولته كان يخرج مع إخوته من الرضاعة في بني سعد يلعب معهم كما يلعب الأطفال، ويتحدث عن ذلك بعد بعثته فيقول: «فبينما أنا ذات يوم منتبذ من أهلي(١٠)، في بطن واد مع أتراب لي من الصبيان نتقاذف بيننا بالجلة إذ أتانا رهط ثلاثة».

وعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ كان يلعب مع الصبيان فأتاه آت فأخذه فشق بطنه، وكان جده عبد المطلب يقول لحاضنته بعد ما رأى وسمع تطلع أهل الكتاب إليه وأحاديثهم عنه: يا بركة لا تغفلي عن ابني فإني رأيته مع غلمان قريبًا من السدرة. ولما هاجر ﷺ إلى المدينة المنورة رأى ملاعب طفولته فيها فذكرها وذكر من كان يلعب معه فيها وذكر ألوانا من اللعب والرياضة كان يطيب له ولأترابه من الفتيان والفتيات أن يتريضوا بها، فقد روي أنه لما نظر إلى أطم بني

(١٠) أي: مبتعد عنهم. (المجلة)

عـدي بن النجار[11]، عرفه وقال: «كنت ألاعب أنيسـة جارية من الأنصار على هذا الأطم، وكنت مع غلمان من أخوالي نُطيِّر طائـرًا كان يقع عليه». وتحدث عن لون من الرياضة كان يُظن ألا يعتنـي بهـا إلا أهل الأنهار وسـكان سـواحل البحار، وهي رياضة العوم والسـباحة، ولكـن الفطر السـليمة يحبب إليها حتـى في ألعابها كل لون محبب مفيـد، وفي ذلك يقول النبي ﷺ متحدثًا عن طفولته: «وأحسـنت العـوم في بئر بني عدي بـن النجار»، وكان يتحـدث عن حفظ الله تعالـى له في صغره ورياضة طفولته فيقول: «لقد رأيتني في غلمان من قريش ننقل الحجـارة لبعـض ما يلعب الغلمان، كلنا قـد تعرى وأخذ إزاره وجعلـه على رقبتـه يحمل عليـه الحجارة، فإنـي لأقبل معهم كذلك وأدبر إذ لكمني لاكم لا أراه لكمة وجيعة ثم قال: شـد عليك إزارك، فأخذته فشـددته علي ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتي وإزاري علي من بين أصحابي».

ولـم يكن حفـظ الله تعالى له عـن بعض معايـب الجاهلية ليصرفـه عن مشـاركة لداته وأقرانه من الغلمـان والأطفال مع رعاية ما يرشـد إليه من الخير والأدب، ففي هذا الحديث تراه يتحدث عن عادة شائعة بين أطفال البوادي والريف، هي عادة التكشـف والتعري في ألعابهم ورياضاتهـم وبعض أعمالهم،

(١١) هو قصر بُني في أكمة عالية. (المجلة)

وهي عادة تعيبها الآداب الراقية والعادات الحضرية المهذبة، وتنكرها عوارف المجتمعات الفاضلة، ومحمد ﷺ أرادته المقادير الإلهية ليكون في تمام رجولته هاديًا ومرشدًا، والهداة المرشدون أكمل الناس أدبًا وأرقاهم عادة وأحسنهم صنعًا، فطرة يفطرهم الله عليها وتأديبًا يؤدبهم الله به وإعدادًا صالحًا يعدهم له في منشئهم ومرباهم، ولكنه تأديب وإعداد لا يخرجهم عن طبيعة الإنسان التي فطرهم الله عليها. فمحمد ﷺ أخذ مع أقرانه في رياضتهم ينقل الحجارة على الصورة التي ألفها الغلمان في البوادي والحِراج[١٢]، وهم قد ألفوا التعري ليقوا بأزرهم أجسامهم الغضة من ألم الحجارة، فكانوا يضعونها على رقابهم يحملون عليها الحجارة، فأُرْشِدَ بما شاء الله إلى أدب اجتماعي لا يصلح أن يجرد منه الهداة المرشدون في جميع مراحل حياتهم، فأسرع إلى الامتثال وأخذ عليه إزاره وأقبل على رياضته مع أترابه يحمل الحجارة على رقبته وإزاره عليه من بين أصحابه، ولم ينفصل عنهم ويهجر لعبتهم المحببة، بل آثر أن يبقى معهم وأن يستمر في رياضتهم متحملاً ألم حمل الحجارة دون وقاية في سبيل التكمل بهذا الأدب الاجتماعي النبيل.

وهكذا كانت طفولة محمد ﷺ طفولة مرحة محببة

(١٢) الحِراج: جمع حَرَجة وهي الموضع الذي يكثر فيه الشجر. (المجلة)

يحوطها الله تعالى برعايته ويرعاه فيها بعنايته فشب محفوظًا من أقذار الجاهلية وشناءتها ومعايبها، لما يريد الله من كرامته ورسالته.

قال ابن سعد في الطبقات: وشبَّ رسول الله ﷺ مع أبي طالب يكلؤه الله ويحفظه ويحوطه من أمور الجاهلية ومعايبها لما يريد الله به من كرامته، حتى بلغ أن كان رجلاً أفضل قومه مروءة وأحسنهم خلقًا وأكرمهم مخالطة وأحسنهم جوارًا وأعظمهم حلمًا وأمانة، وأصدقهم حديثًا وأبعدهم من الفحش والأذى، وما رئي ملاحيًا ولا مماريًا أحدًا حتى سماه قومه الأمين، لما جمع الله له من الأمور الصالحة. وفي سيرة ابن هشام من طريق ابن إسحاق: فشب رسول الله ﷺ والله تعالى يكلؤه ويحفظه ويحوطه من أقذار الجاهلية، لما يريد به من كرامته ورسالته، حتى بلغ أن كان رجلًا أفضل قومه مروءة وأحسنهم خلقًا وأكرمهم حسبًا وأحسنهم جوارًا وأعظمهم حلمًا وأصدقهم حديثًا وأعظمهم أمانة، وأبعدهم من الفحش والأخلاق التي تدنس الرجال تنزهًا وتكرمًا، حتى ما اسمه في قومه إلا الأمين لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة.

***

محمد ﷺ

يشهد حرب كنانة وقيس في يوم الفجار

عظائم وتوافه كانت تثير الحروب:

الحرب سُنَّة من سُنن العرب المألوفة التي قضت بها عليهم حياتُهم الاجتماعية والاقتصادية في بيئتهم الطبيعية التي وضعهم الله فيها، وتاريخهم مشحون بالحديث عنها وتعداد أيامها التي شهرت بين قبائلها، وأدبهم شعره ونثره مفعم بأخبارها نصرًا وهزيمة شجاعة وجبنًا فروسية وبطولة، حتى كادت تستوعب مناحي الحياة كلها. والمتقصي لأسباب تلك الحروب التي استأثرت بالحياة العربية وشغلت العرب في جزيرتهم بأنفسهم يجد في كثرتها توافه ما كانت تستأهل أن تكون دوافع إلى تسعير نيران قتال تأكل الرجال أكلاً، وتشرد الأطفال وترمل النساء وتذل الأعزاء وتفزع الآمنين، ولكنها الطبيعة والفراغ والحاجة هي التي تقف من وراء توافه الأمور فتزكيها نارًا تلتهب، بيد أن أيامًا من أيام تلك الحروب كانت أسبابها تتصل بالكرامة القومية أو الدفاع عن النفس، فكانت جديرة أن تثبت في تاريخ العرب لتسجل لهذا الشعب الكريم طبيعة من طبائعه الغلابة، تلك هي طبيعة الأنفة، عن قبول الضيم والتسامي عن الرضا بالذل، كالذي نقرؤه في دواعي حرب ربيعة وبكر التي بدأت بقتل كليب سيد

ربيعة في ناقة البسوس خالة جساس بن مرة، فإنه كان يكمن وراء ذلك استذلال كليب لبني عمومتهم من البكريين حتى امتلأت قلوبهم ولا سيما شبابهم بالضغينة والغيظ المحنق، فكان هذا الحادث التافه الصغير منفذًا إلى تلك العظائم المدمرة والحروب المستعرة ردًا على كبرياء ربيعة في بطر كليبها وبأوه[١٣]. وكالذي نقرأ في دوافع قتل (حُجر) ملك كندة وأبي امرئ القيس الشاعر، فقد روى التاريخ من تعاليه واسبطراره على بني أسد[١٤]، ما أحرق أكبادهم عليه غيظًا، فانتقموا بقتله لكرامتهم وشرفهم، واستعرت بين أسد وكندة حروب أفنت العديد من القبيلتين.

ومن هذا القبيل يوم فجار قيس وكنانة الذي شهده محمد ﷺ في شبابه مع عمومته، فقد قيل في سببه: أن النعمان بن المنذر ملك الحيرة كان قد تعود إرسال لطيمة (نوافج المسك) إلى سوق عكاظ لتباع هناك، وكان يتخذ لخفارتها في طريقها على أحياء العرب رجلًا من رجالات العرب مرهوبي السلطان، وكان عنده في مجلسه يومئذ البراض بن قيس الكناني- وكان رجلًا فاتكًا خليعًا قد خلعه قومه لكثرة شره- وعروة بن عتبة بن جعفر بن كلاب القيسي المعروف بالرحال، فقال النعمان: من يجير لي لطيمتي هذه حتى يبلغها

(١٣) بأى فلان يبأى على أصحابه: افتخر عليهم. (المجلة)

(١٤) اسبَطَرَّ: تكبر وتعالى. (المجلة)

عـكاظ[15]، فقال البراض : أبيت اللعن أنا أجيرها على كنانة، فقـال النعمان : إنما أريد مـن يجيرها على كنانة وقيس، فقال عـروة : أكلب خليع يجيرها لك أبيـت اللعن؟ أنا أجيرها لك على أهل الشـيح والقيصوم من أهل تهامة وأهل نجد، فغضب البراض وقال : وعلى كنانة تجيرها يا عروة؟ قال عروة : وعلى الناس كلهم.

فدفع النعمان لطيمته إلى عروة الرحال وأمره بالمسير بها، فتبعه البراض وتحيَّن غفلته فقتله، واسـتاق العير إلى عكاظ، وفي طريقه لقي بشـر بن أبي حازم الأسـدي الشـاعر وأمره أن يلقي بالخبر إلى عبد الله بن جدعان وحرب بن أمية في جماعة مـن رءوس كنانـة، فأخبرهم فخرجوا موائلين منكشـفين إلى الحرم[16]، بعد أن ألقوا إلى سيد قيس البراء بن مالك ملاعب الأسـنة بخدعة حتى لا يسـتوحش هو وقومه وأهل السوق من خروجهـم المفاجئ؟ فلما فشـا الخبـر واسـتيقنته قيس قال البـراء : مـا كنا من قريـش إلا في خدعـة!! وخرجت قيس في آثـار كنانة فأدركوهم وقـد دخلوا الحرم، فلـم يقع بينهم هذا العام قتال، وقيل : بل أدركوهم قبل الحرم فاقتتلوا حتى دخلت كنانـة الحرم مع الليل فحجز ذلك بينهـم، وتواعدوا إلى مثل هذه الأيـام من العام المقبل، وأخـذ كل فريق يجمع جموعه،

(١٥) الإجارة هنا بمعنى الحماية. (المجلة)

(١٦) واءَل فلان: طلب النجاة. (المجلة)

وفرقت قريش السلاح في كنانة وحلفائها من الأحابيش وخرجوا للموعد على كل بطن منهم قائد، وكان على بني هاشم الزبير بن عبد المطلب وإخوته أبو طالب وحمزة والعباس ومعهم رسول الله ﷺ وكانت سِنه -إذ ذاك- فيما يرويه ابن هشام عن أبي عبيدة وأبي عمرو بن العلاء خمس عشرة سنة، وفيما يرويه ابن إسحاق وابن سعد عشرين سنة، ولعل هذا الاختلاف منظور فيه إلى بداءة الحرب ونهايتها لأنها كما يقول المؤرخون مكثت أعوامًا، فقد تكون سِنه عند بداءتها خمس عشرة سنة وبذلك أخذ ابن هشام، وتكون سِنه عند نهايتها بالصلح بين الفريقين عشرين سنة وبذلك أخذ رواة ابن سعد، وقد كانت الجولة الأولى لقيس على كنانة، ثم عادت إلى كنانة فأسرفت في القتل من قيس وقتلوهم قتلًا ذريعًا حتى نادى عتبة بن ربيعة وهو يومئذ شاب ما كملت له ثلاثون سنة إلى الصلح، فاصطلحوا على أن تدي قريش ما قتلت(١٧) فضلًا عن قتلى قيس ووضعت الحرب أوزارها.

وقد تحدث رسول الله ﷺ عن شهوده الحرب في يوم الفجار. قال ابن هشام: وشهد رسول الله ﷺ بعض أيامهم، أخرجه أعمامه معهم، وقال رسول الله ﷺ: «كنت أنبل على أعمامي» أي أرد عنهم نبل عدوهم إذا رموهم بها، وهذا

(١٧) وَديتُ القتيلَ أديه ديةً: أعطيتُ ديته. (المجلة)

الموقف يناسب ما ذكر في سِنه باعتبار بداءة الحرب، وقد روى ابن سعد أنه ﷺ رمى فيها بأسهم، وهذا يلائم ما ذكر من سِنه باعتبار نهاية الحرب؛ فقد ذكر عن رسول الله ﷺ أنه قال وهو يذكر الفجار: «قد حضرته مع عمومتي ورميت فيه بأسهم وما أحب أني لم أكن فعلت».

***

محمد ﷺ
يشهد حلف الفضول

حلف الفضول:

كان حلف الفضول أكرم حلف سمع به في الجاهلية وأشرفه في العرب، وكان بعد الفجار بأشهر، وأول من دعا إليه وقام بأمره الزبير بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ وكان سببه أن رجلًا من زبيد قدم مكة ببضاعة فاشتراها منه العاصي بن وائل فحبس عنه حقه، فاستعدى عليه الزبيدي الأحلاف: عبد الدار ومخزومًا وجمحًا وسهمًا، فأَبَوا أن يعينوا على العاصي بن وائل وانتهروا الرجل الزبيدي، فلما رأى منهم الشر أوفى على أبي قبيس عند طلوع الشمس- وقريش في أنديتهم حول الكعبة- فنادى بأعلى صوته:

يا آل فهر لمظلوم بضاعته
ببطن مكة نائي الدار والنفر
ومحرم أشعث لم يقض عمرته
يا للرجال وبين الحِجر والحَجَرِ
إن الحرام لِمَنْ تمت كرامته
ولا حرام لثوب الفاجر الغُدَرِ

فقام الزبير بن عبد المطلب وقال: ما لهذا، فاجتمعت هاشم وزُهرة وتَيْم بن مرة في دار عبد الله بن جدعان، فصنع

لهم طعامًا وتحالفوا في ذي القعدة في شهر حرام فتعاقدوا وتحالفوا بالله ليكونن يدًا واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدى إليه حقه ما بل بحر صوفة وما رسى ثبير وحراء مكانهما، وعلى التآسي في المعاش، فسمَّت قريش ذلك الحلف حلف الفضول، وقالوا: لقد دخل هؤلاء في فضل من الأمر، ثم مشوا إلى العاصي بن وائل فانتزعوا منه سلعة الزبيدي، فدفعوها إليه، وفي ذلك يقول الزبير بن عبد المطلب.

حلفت لنعقدن حلفًا عليهم
وإن كنا جميعًا أهلَ دار
نسميه الفضول إذا عقدنا
يُعَزُّ به الغريب لدى الجوار
ويعلم من حوالي البيت أنا
أباة الضيم نمنع كل عار

ويقول أيضًا:

إن الفضول تعاقدوا وتحالفوا
ألا يقيمَ ببطن مكة ظالمُ
أمر عليه تعاقدوا وتواثقوا
فالجار والمعتر فيهم سالم(١٨)

وقد شهد النبي ﷺ هذا الحلف وسِنه عشرون سنة، وأثنى

(١٨) المعترُّ هنا بمعنى: الزائر من غير البلاد. انظر كتاب (الأفعال) لابن القطاع. (المجلة)

عليه حين ذكره في الإِسلام، فقال فيما يرويه الواقدي عن جبير بن مطعم: «ما أحب أن لي بحلف حضرته بدار ابن جدعان حُمْر النعم، وأني أَغْدِرُ به، هاشم وزهرة وتيم تحالفوا أن يكونوا مع المظلوم ما بل بحرٌ صوفةً. ولو دعيت به لأجبت، وهو حلف الفضول».

إقرار هذا الحلف وأمثاله في الإسلام:

روى ابن كثير من طريق الحميدي عن سفيان بن عيينة عن عبد الله عن محمد وعبد الرحمن ابني أبي بكرة قالا: قال رسول الله ﷺ: «لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفًا لو دعيت به في الإِسلام لأجبت، تحالفوا أن يردوا الفضول على أهلها، وألا يَعُزَّ[(١٩)] ظالم مظلومًا».

وقد بقي أثر هذا الحلف في الإِسلام وتداعى به الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير والمسور بن مخرمة. روى ابن هشام عن محمد بن إسحاق أنه قال: كان بين الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما وبين الوليد بن عتبة بن أبي سفيان- والوليد يومئذ أمير على المدينة، أَمَّرَه عليها عمه معاوية بن أبي سفيان- منازعة في مال كان بينهما بذي المروة، فكأن الوليد تحامل على الحسين في حقه لسلطانه، فقال له حسين: أحلف بالله لتنصفني من

(١٩) يعز، ومنه المثل: من عزَّ بَزَّ أي: من غلب سلب.

حقي أو لآخذن سيفي ثم لأقومن في مسجد رسول الله ﷺ ثم لأدعون بحلف الفضول، فقال عبد الله بن الزبير وهو عند الوليد حين قال حسين ما قال: وأنا أحلف بالله لئن دعا به لآخذن سيفي ثم لأقومن معه حتى ينصف من حقه أو نموت جميعًا، وبلغت المسور بن مخرمة بن نوفل الزهري فقال مثل ذلك، وبلغت عبد الرحمن بن عثمان بن عبيد الله التيمي فقال مثل ذلك، فلما بلغ ذلك الوليد بن عتبة أنصف الحسين من حقه حتى رضي.

***

محمد ﷺ يعمل في بناء الكعبة

احتياج البيت لإعادة البناء:

الناظر إلى موضع الكعبة المشرفة من مكة المكرمة يراها في مطمئن من الأرض تحيط بها الجبال من كل جانب، مما جعلها في الأزمنة الغابرة قبل أن يعمر ما حواليها بالبيوت والمساكن ومُشيَّد البنيان عرضةً لجوارف السيل، وقد حذرت قريش عواقب ذلك وخافت على البيت أن تهدمه السيول، فأقامت ردمًا من حوله جعلوه مطلاً على البيت لحمايته، فكانت السيول تأتي من فوق هذا الردم حتى كادت تزيله، وكانت تعلوه حتى تدخل البيت فتصدَّع وخافوا أن ينهدم، وكانت أبواب البيت لاطئة بالأرض(٢٠)، فسرقت خزائنه وهداياه التي كانت تهدى إليه فتلقى في بئر بداخله، فاجتمعت قريش وقالوا: لو بنينا بيت ربنا، وكان البيت شرفَهم وعزَّهم، فقسموه أرباعًا واقترعوا عليه، فوقع لبني عبد مناف وزهرة ما بين الركن الأسود إلى ركن الحِجْر، ووقع لبني أسد بن عبد العزى وبني عبد الدار بن قصي، ما بين ركن الحِجر إلى ركن الحِجر الآخر، ووقع لتيم ومخزوم ما بين ركن الحجْر إلى الركن اليماني، ووقع لسهم وجمح وعدي وعامر بن لؤي ما

(٢٠) لطأ: لزق. (المجلة)

بين الركن اليماني إلى الركن الأسود، وقد شجعهم على بنائه أن سفينة مشحونة بمواد البناء من الرخام والخشب والحديد كان قيصر ملك الروم سرَّحها مع رجل رومي يقال له باقوم إلى بلاد الحبشة لبناء كنيستها التي أحرقها الفرس، فلما بلغت الشعبية وكانت مرفأ السفن قبل جدة لعبت بها العواصف فحطمتها، وتسامعت بها قريش فابتاعوا ما فيها، وكلموا باقوم فقدم معهم إلى مكة.

قريش تخطط لإعادة البناء:

ولما أجمعوا أمرهم على هدم الكعبة وبنيانها قام فيهم أبو وهب عمرو بن عابد بن عبد بن عمران بن مخزوم، وهو خال أبي رسول الله ﷺ وكان رجلاً شريفًا ممدحًا فقال لهم: يا معشر قريش لا تُدخلوا في بنيانها من كسبكم إلا طيبًا، لا يدخل فيها مهر بغي ولا بيع ربا ولا مظلمة أحد من الناس، ثم أخذوا في البناء على مواضعهم، فلما انتهوا إلى حيث يوضع الركن الأسود من البيت قالت كل قبيلة: نحن أحق بوضعه، واختلفوا حتى خافوا القتال، ثم جعلوا بينهم حكمًا أول من يدخل من باب بني شيبة فيكون هو الذي يقضي بينهم، فكان أول داخل عليهم من ذلك الباب محمد بن عبد الله ﷺ، فلما رأوه قالوا: هذا الأمين قد رضينا بما يقضي بيننا، ثم أخبروه الخبر، فوضع رسول الله ﷺ رداء وبسطه في الأرض ثم وضع الحَجَر فيه، ثم قال: ليأت من كل ربع من أرباع قريش رجل،

فـكان في ربع بنـي عبد مناف عتبة بن ربيعـة، وكان في الربع الثاني أبو زمعة، وكان في الربع الثالث أبو حذيفة بن المغيرة، وكان فـي الربع الرابع قيس بن عدي، ثم قال رسـول الله ﷺ: ليأخذ كل رجل منكم بزاوية من زوايا الثوب ثم ارفعوه جميعًا، فرفعـوه ثم وضعه رسـول الله ﷺ بيـده في موضعـه، قال ابن سـعد: فذهب رجل من أهل نجد ليناول النبي ﷺ حجرًا يشد بـه الركن، فقال العبـاس بن عبد المطلـب: لا، ونحاه وناول العباس رسـول الله ﷺ حجرًا فشد به الركن، فغضب النجدي حيـث نُحِّـي، فقال النبـي ﷺ: إنه ليس يبني معنـا في البيت إلا [مـن كان] منـا. فقـال النجدي: يا عجبًا لقوم أهل شـرف وعقول وسـن وأمـوال عمدوا إلـى أصغرهم سـنًا وأقلهم مالاً فرأسـوه عليهم في مكرمتهم وحرزهم كأنهم خدم له، أما والله ليفوتنهم سبقًا وليقسمن بينهم حظوظًا وجدودًا.

أُسس البيت اليوم على أسسه في بناء قريش:

وقـد بنت قريش البيت على أسسـه التي هـو عليها اليوم، وأخرجـت منـه الحِجْر قريبًا من سـبعة أذرع، وكان داخلاً فيه على قواعد إبراهيم وإسـماعيل عليهما السلام، فلما قصرت النفقـة بقريش تركوا منه ما تركـوا، روى الواقدي فيما ذكره عنه تلميذه محمد بن سـعد عن عائشـة رضي الله عنها قالت: قال رسـول الله ﷺ: «إن قومَك اسـتقصروا من بنيان الكعبة، ولولا حداثة عهدهم بالشـرك أَعدت فيه ما تركوا منه، فإن بدا

لقومـك مـن بعدي أن يبنوه فهلـمَّ أريك ما تركـوا منه» فأراها قريبًا من سـبعة أذرع في الحِجْر ثم قالت عائشـة: قال رسـول الله ﷺ فـي حديثه: «ولجعلت لها بابين موضوعين في الأرض شـرقيا وغربيا، أتدرين لم كان قومـك رفعوا بابها؟» فقلت له لا أدري، قـال: «تعززًا، لا يدخلها إلا من أرادوا» قال الواقدي: حدثنـي عبـد الله بن يزيد الهذلي عن سـعيد بـن عمر عن أبيه قال: رأيت قريشًا يفتحون البيت في الجاهلية يوم الاثنين ويوم الخميس، فكان حجابه يجلسون على بابه فيرقى الرجل، فإذا كانـوا لا يريـدون دخوله دُفـع فطُرح فربما عطـب. وقال ابن كثيـر في البدايـة: وقد كانوا أخرجوا منها الحِجْر -وهو سـتة أذرع أو سـبعة أذرع مـن ناحية الشـام- قصرت بهـم النفقة أي لـم يتمكنوا أن يبنـوه على قواعـد إبراهيم، وجعلـوا للكعبة بابًا واحدًا من ناحية الشـرق وجعلـوه مرتفعًا لئلا يدخل إليها كل أحـد، فيُدخلوا من شـاءوا ويمنعوا من شـاءوا، وقد ثبت فـي الصحيحيـن عن عائشـة رضي الله عنها أن رسـول الله ﷺ قال لها: «ألم تري أن قومك قصرت بهم النفقة، ولولا حِدثانُ قومـك بكفـر[21]، لنقضت الكعبـة وجعلت لها بابًا شـرقيًا وبابًـا غربيًّـا، وأدخلت فيهـا الحجر». ولهذا لمَّـا تمكن ابن الزبير بناها على ما أشـار إليه رسـول الله ﷺ وجاءت في غاية

(٢١) أي: حداثة عهدهم بالكفر. (المجلة)

البهاء والحسن كاملة على قواعد الخليل، لها بابان ملتصقان بالأرض شرقيًا وغربيًا، يدخل الناس من باب ويخرجون من الآخر، فلما قتل الحجاجُ ابنَ الزبير كتب إلى عبد الملك بن مروان - وهو الخليفة يومئذ - فيما صنعه ابن الزبير واعتقدوا أنه فعل ذلك من تلقاء نفسه، فأمر بإعادتها إلى ما كانت عليه، فعمدوا إلى الحائط الشامي فحَصُّوه(٢٢)، فأخرجوا منه الحجر ورصوا حجارته في أرض الكعبة، فارتفع بابها، وسدوا الغربي واستمر الشرقي على ما كان عليه، فلما كان زمن المهدي - أو أبيه المنصور - استشار مالكًا في إعادتها على ما كان صنعه ابن الزبير، فقال مالك رحمه الله -: إني أكره أن يتخذها الملوك ملعبة، فتركها على ما هي عليه، فهي إلى الآن كذلك. قلت: وهي في هذه الأوصاف والنعوت التي ذكرها باقية إلى يومنا هذا (سنة ١٣٧١ هجرية) - حيث متعنا الله بالنظر إليها في حجتنا الفريضة - زادها الله شرفًا وهيبة وجلالاً.

عمل رسول الله ﷺ في بناء الكعبة:

كان رسول الله ﷺ يعمل في بنائها مع عمومته، وينقل الحجارة إليها، روى البخاري ومسلم من حديث عبد الرزاق عن عمرو بن دينار عن جابر بن عبد الله يقول: لما بُنيتْ الكعبة ذهب رسول الله ﷺ ينقل الحجارة، فقال العباس

(٢٢) حصَّ الشيء حُصاصًا: حركه بقوة. انظر: (تهذيب اللغة). (المجلة)

لرسـول الله ﷺ : اجعـل إزارك علـى عاتقـك مـن الحجـارة ، ففعـل فخـرَّ على الأرض وطمحـت عيناه إلى السـماء ، ثم قام فقال : «إزاري» فشـد عليـه إزاره . وروى البيهقـي عن عكرمة قـال : حدثني ابـن عباس عن أبيـه أنه كان ينقـل الحجارة إلى البيـت حين بنت قريش البيت ، قـال العباس : وأفردت قريش رجلين رجلين ، الرجال ينقلون الحجارة وكانت النسـاء تنقل الشيد(٢٣) ، فكنت أنا وابن أخي وكنا نحمل على رقابنا وأُزُرنا تحـت الحجـارة فإذا غشـينا النـاسَ اتزرنا ، فبينما أنا أمشـي ومحمد أمامي فخرَّ منبطحًا على وجهه فجئت أسـعى وألقيت حجري وهو ينظر إلى السـماء ، فقلت : ما شأنك ؟ فقام وأخذ إزاره فقـال : «إني نُهيتُ أن أمشـي عريانًـا» وكنت أكتمها من النـاس مخافة أن يقولوا مجنون ، ولما رآه عمه أبو طالب يلبس إزاره قـال لـه : يا ابن أخـي اجعل إزارك على رأسـك فقال : «ما أصابني ما أصابني إلا من التعري» .

وقد اختلفت الروايات في سـن رسـول الله ﷺ يوم أن بنت قريـش الكعبة ، فذهب محمد بن إسـحاق إلـى أنه كان قد بلغ خمسًـا وثلاثين سـنة ، وذلك بعد الفجار بخمس عشرة سنة ، وكان الفجـار بعد الفيل بعشـرين سـنة ، وفي عـام الفيل ولد رسـول الله ﷺ ، وإلى رأي ابن إسحاق جنح جمهور المؤرخين

(٢٣) الشِّيد: الملاط وهو الخليط الذي يوضع بين الطوب عند البناء. (المجلة)

ومؤلفي السير والمغازي، وذهب مجاهد وعروة ومحمد بن جبير بن مطعم إلى أن سن رسول الله ﷺ كانت حين بنت قريش الكعبة خمسًا وعشرين سنة؛ لأنهم ذكروا أن بناء الكعبة كان قبل المبعث بخمس عشرة سنة، وكان مبعثه ﷺ على رأس أربعين سنة من عمره، ولعل البيهقي في ذكره بناء الكعبة قبل تزويج خديجة مال إلى قول مجاهد ومن معه في وقوع بناء الكعبة سنة التزوج بخديجة، هذا في أول العام وذاك في آخره.

***

محمد ﷺ

يتسامى عن دنس الجاهلية

صورة للتسامي الفطري نشأ عليها محمد ﷺ:

لو أن قلمًا عبقريًا تتبع حياة محمد ﷺ منذ ولادته إلى أن بعثه الله رحمة للعالمين ليضعها في إطار يجمع بين ألوانها ويوحد بين أحداثها وحوادثها لإخراجها للحياة صورة إنسانية عربية فطرية، تمثل محمدًا ﷺ وقد ولدته أمه يتيمًا تلقته بادية هوازن في بني سعد رضيعًا وفطيمًا وغلامًا ناشئًا يخرج مع إخوته وأخواته رضاعًا يلعبون وراء بيوت الحي ويرتادون لأغنام قومهم المراعي ومشارع الماء وظلال الشجر، وفي هذه البادية المطلقة ينشأ على فصاحة البيان ورصانة المنطق وخصائص التعرب مما تَمدَّح به في رجولته فقال لأصحابه: «أنا أعربكم، أنا من قريش، ولساني لسان بني سعد بن بكر».

وترده البادية بعد أن سما شبابًا إلى مكة ليجد أمه وحيدة حزينة، ولكنها تجده غلامًا يسامي الفتيان في شبابه فيملأ سمعها وبصرها ويستحوذ على فراغ قلبها ويسرّي عنها أحزانها، وتحدثه عن أبيه ويغلبها الشوق لزيارة قبره فتتحمل به مع حاضنته إلى مثوى أبيه بيثرب، وهناك ينفسح له مجال الطفولة فيلعب مع لداته وأترابه في ملاعب يذكرها بعد أن صارت يثرب المدينة المنورة بهجرته وهجرة أصحابه ونصرة

أهلها لدعوته ورسالته، ويتحدث عن تلك الملاعب حديث الغبطة والتحبب، ويراه يهود يثرب مع حاضنته فيلحظونه، ويطوفون حوله ويتحدثون عنه، ويبلغ حديثهم مسامع أمه فتخشاهم عليه وهي به غريبة عن بلدها وبلده وأهلها وأهله، فتسرع عائدة به إلى مكة، وفي طريق عودتها يشهد محمد عليه السلام مرضها ووفاتها، ويسمع كلامها عنه ناطقة بأسرار الغيب، ويواريها قبرها، ويرجع مع حاضنته الوفية الأمينة وحيدًا بلا أم تكفله ولا أب يئويه. ويتلقاه جده عطوفًا كريمًا فيرعاه ويكفله حتى إذا بلغ ثماني سنين شهد موت هذا الجد العطوف، فبكى خلف سريره وهو يشيعه إلى مقره الأبدي، وعاد ليجد عمه صنو أبيه وشقيقه أبا طالب يفتح له ذراعيه ليضمه إلى صدره ويكون له نعم الكافل الحبيب، وفي هذه الكفالة ومحمد ﷺ شاب في مهد الشباب يبتهج أمثاله بالأعياد والمحافل والمواسم وما يجري فيها من مراسم وعادات وأساطير وخرافات وألعاب وسخافات تمثل العقيدة والأخلاق ومألوف العرف ومنحدر الوراثة، فيعتزلها إلا من مكارمها، ويعيش منطويًا على تفكيره.

ويلحظ أعمامه وعماته عليه انطواءً عن أعيادهم ومحافلهم ومراسم عقائدهم وطقوس عباداتهم، ورأوا فيه بغضة لآلهتهم وتجافيًا عن تقديسها كما يقدسونها، فهو لا يطوف بها ولا يتمسح، ولا يتبرك بها ولا يقرِّب إليها، مع أنهم يرونه

مع أترابه من الغلمان يلعبون ويمرحون بعيدًا عن أعيادهم ومراسمهم، فحدثوه في ذلك حتى رؤي الغضب في وجه عمه ومحبه وكافله أبي طالب، وغضب عليه عماته غضبًا شديدًا فعاتبنه حتى حملنه على المشقة والعنت.

شواهد التسامي المحصن بالحفاوة الربانية:

روى ابن سعد في الطبقات من طريق شيخه الواقدي عن عكرمة عن ابن عباس قال: حدثتني أم أيمن قالت: كانت (بوانة) صنمًا تحضره قريش تعظمه، تنسك له النسائك ويحلقون رءوسهم عنده يومًا إلى الليل، وذلك يومًا في السنة، وكان أبو طالب يحضر هذا اليوم مع قومه، وكان يكلم رسول الله ﷺ أن يحضر ذلك العيد مع قومه فيأبى رسول الله ﷺ ذلك حتى رأيت أبا طالب غضب عليه ورأيت عماته غضبن عليه يومئذ أشد الغضب، وجعلن يقلن: إنا لنخاف عليك مما تصنع من اجتناب آلهتنا، وجعلن يقلن: ما تريد يا محمد أن تحضر لقومك عيدًا ولا تكثر لهم جمعًا!! قالت أم أيمن: فلم يزالوا به حتى ذهب فغاب عنهم ما شاء الله، ثم رجع إلينا مرعوبًا فزعًا، فقال له عماته: ما دهاك؟ قال: «إني أخشى أن يكون بي لمم» فقلن: ما كان الله ليبتليك بالشيطان وفيك من خصال الخير ما فيك، فما الذي رأيت؟ قال: «رأيت أني كلما دنوت من صنم

منها تمثل لي رجل أبيض طويل يصيح بي: وراءك يا محمد، لا تمسه» قالت أم أيمن: فما عاد إلى عيد لهم حتى تنبأ.

وقد قدَّمنا في قصة بَحِيرَا الراهب أنه لما رأى قريشًا تحلف باللات والعزى سأل رسول الله ﷺ بهما، فقال له رسول الله ﷺ: «لا تسألني باللات والعزى شيئًا، فوالله ما أبغضت شيئًا قط بغضهما» وكذلك قدَّمنا قصة تعرِّيه لنقل الحجارة لبعض ما يلعب به الغلمان وأنه لُكم لكمة وجيعة ليشد عليه إزاره، وقدمنا حديث البخاري في بناء الكعبة وتعريه مع عمه العباس لنقل الحجارة فلُبِطَ به[٢٤]، فلما قام شد عليه إزاره، فقال له عمه: ما شأنك؟ فقال: «إني نهيت أن أمشي عريانًا». وروى البيهقي عن زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ قال: كان صنم من نحاس يقال له إساف ونائلة يتمسح به المشركون إذا طافوا، فطاف رسول الله ﷺ بالكعبة وطفت معه، فلما مررت مسحت به، فقال رسول الله ﷺ: «لا تمسه» قال زيد: فطفنا فقلت في نفسي لأمسنه حتى أنظر ما يكون، فمسحته فقال رسول الله ﷺ: «ألم تُنْه» قال زيد: فوالذي أكرمه وأنزل عليه الكتاب ما استلم صنمًا قط حتى أكرمه الله تعالى بالذي أكرمه وأنزل عليه.

---

(٢٤) لُبِطَ: صُرع وسقط على الأرض. (المجلة)

حفظه ﷺ من دواعي الشباب البريئة:

وقد حفظه الله تعالى في شبابه من نزعات الشباب ودواعيه البريئة التي تنزع إليها الشبوبية بطبعها، ولكنها لا تلائم وقار الهداة وجلال المرشدين، روى ابن إسحاق والبيهقي والطبري عن محمد بن الحنفية عن أبيه علي بن أبي طالب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يهمون به إلا ليلتين، كلتاهما عصمني الله عزّ وجلّ فيهما. قلت ليلة لبعض فتيان مكة - ونحن في رعاء غنم أهلها -: ألا تبصر لي غنمي حتى أدخل مكة أسمر فيها كما يسمر الفتيان، فقال: بلى. فدخلت حتى جئت أول دار من دور مكة سمعت عزفًا بالغرابيل والمزامير، فقلت: ما هذا؟ قالوا: تزوج فلان فلانة، فجلست أنظر، فضرب الله على أذني فوالله ما أيقظني إلا مس الشمس فرجعت إلى صاحبي، فقال: ما فعلت؟ فقلت: ما فعلت شيئًا، ثم أخبرته بالذي رأيت، ثم قلت له ليلة أخرى: أبصر لي غنمي حتى أسمر ففعل، فدخلت فلما جئت مكة سمعت مثل الذي سمعت تلك الليلة، فسألت فقيل: نكح فلان فلانة، فجلست أنظر فضرب الله على أذني، فوالله ما أيقظني إلا مسّ الشمس، فرجعت إلى صاحبي فقال: ما فعلت؟ فقلت: لا شيء، ثم أخبرته الخبر، فوالله ما هممت ولا عدت بعدهما لشيء من ذلك حتى أكرمني الله عزّ وجلّ بنبوته».

ومن حديث رواه أبو نعيم: أن العباس بن عبد المطلب

خرج في تجارة إلى اليمن في ركب فيهم أبو سفيان بن حرب، وكان أبو سفيان يجلس إلى حبر من اليهود، فسأله الحَبرُ عن رسول الله ﷺ فلم يشفه أبو سفيان، قال العباس: فنادى الحبرُ فجئت فخرجت حتى جلست ذلك المجلس من الغد، وفيه أبو سفيان بن حرب والحبر، فقلت للحبر: بلغني أنك سألت ابن عمي عن رجل منَّا زعم أنه رسول الله ﷺ وأخبرك أنه عمه، وليس بعمه ولكن ابن عمه، وأنا عمه وأخو أبيه، قال: أخو أبيه؟ قلت: أخو أبيه، فأقبل على أبي سفيان فقال: صدق؟ قال: نعم صدق، فقلت: سلني، فإن كذبت رد عليّ، فأقبل عليّ فقال: نشدتك هل كان لابن أخيك صبوة أو سفهة؟ قلت: لا، وإله عبد المطلب، ولا كذب ولا خان، وإنه كان اسمه عند قريش الأمين.

ولما خرج محمد ﷺ في مال خديجة ليتجر لها حضر سوق بُصْرَى فباع سلعته التي خرج بها واشترى غيرها، فكان بينه وبين رجل اختلاف في شيء، فقال له الرجل: احلف باللات والعزى، فقال رسول الله ﷺ: «ما حلفت بهما قط، وإني لأمر فأعرض عنهما» فصدقه الرجل وقال: القول قولك. وروى ابن سعد عن الربيع بن خُثَيم قال: كان يُتحاكم إلى رسول الله ﷺ في الجاهلية ثم اختص في الإسلام.

وكان ﷺ مع تساميه عن دنس الجاهلية ومعايبها يشارك قومه في أعمال الخير والمكرمات، وقد سمعت قوله في حرب الفجار

التي شهدها مع عمومته، وقوله في حلف الفضول الذي شهده في دار ابن جُدعان مع أشراف قريش، وسمعتَ روايات التاريخ وصحيح الأحاديث في عمله في بناء الكعبة. وكان ﷺ كلما تقدمت به سِنه واقترب من كمال الرجولية ويرى ما عليه قومه من ضلالة الوثنية زاد انطواء على نفسه، وفرّ من المجتمعات إلى الانفراد والعزلة كراهة لحياتهم وفرارًا من أقذارهم وسقطاتهم.

قال ابن كثير: وإنما كان رسول الله ﷺ يحب الخلاء والانفراد عن قومه لما يراهم عليه من الضلال المبين من عبادة الأوثان والسجود للأصنام، وقويت محبته للخلوة عند مقاربة إيحاء الله إليه صلوات الله وسلامه عليه. وقال ابن إسحاق عن بعض أهل العلم: وكان رسول الله ﷺ يخرج إلى حراء في كل عام شهرًا من السنة يتنسك فيه ـ وكان من نُسُكِ قريش في الجاهلية ـ يطعم من جاءه من المساكين، حتى إذا انصرف من مجاورته لم يدخل بيته حتى يطوف بالكعبة.

وهكذا كانت نشأة محمد ﷺ منذ ولدته أمه إلى أن بعثه الله رحمة للعالمين أكمل نشأة، تولاه الله تعالى فأدبه وربّاه، فكمله ورعاه، فحفظه مما كان يغمر حياة قومه من وثنية وعادات مسترذلة، حتى غدا أكمل إنسان في بشريته، لم يستطع أحد أن يريبه في حياته أو يزن شبابه بغميزة أو ريبة على كثرة الخصوم والأعداء والمتربصين، فضلاً من الله ونعمة والله ذو الفضل العظيم.

محمد ﷺ

يتجر في مال خديجة

متى خرج عليه السلام للتجارة في مال خديجة؟

تختلف الروايات هل خرج محمد ﷺ إلى الشام تاجرًا بعد خروجه مع عمه أبي طالب في سفرة بَحِيرَا الراهب، وقبل خروجه عاملاً في مال خديجة بنت خويلد؟ فقد أخرج ابن مَنْدَه عن ابن عباس أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه صحب النبي ﷺ وهو ابن ثماني عشرة سنة والنبي ﷺ ابن عشرين سنة، وهم يريدون الشام في تجارة حتى نزل منزلاً فيه سِدْرة، فقعد في ظلها وذهب أبو بكر إلى راهب يقال له بحيرا يسأله عن شيء، فقال له: من الرجل الذي في ظل الشجرة؟ فقال له: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، قال: هذا والله نبي، ما استظل تحت ظلها بعد عيسى إلا محمد ﷺ، ووقع هذا في قلب أبي بكر الصديق فلما بُعث النبي ﷺ اتبعه. قال ابن حجر في الإصابة: إن صحت هذه القصة فهي سفرة أخرى بعد سفرة أبي طالب، وقد ضعّف القسطلاني سند هذه الرواية، وضعْفُ السند لا يلزمه انتفاء القصة، ونحن نميل إلى أنها سفرة أخرى بعد سفرة أبي طالب التي كانت فيها سن النبي ﷺ اثنتي عشرة سنة، والجمهور على أن أبا بكر الصديق لم يكن في تلك السفرة، وقد أجزنا وجوده فيها ولم نستبعده،

أخـذًا بروايـة الترمذي المتقدمـة أما هذه السـفرة فقد كانت فيها سـن النبي ﷺ عشـرين سـنة، ولم يُذكر فيها أبو طالب عم رسـول الله ﷺ وذُكر فيها أبو بكر، فالظاهر أن النبي ﷺ خرج في هذه السـفرة مستقلاً يتجر لنفسه وكان يصحبه فيها أبو بكر مع من كان في العير من تُجَّار قريش، وكان قبلها منذ عـاد بـه عمه أبو طالب من سـفرة بحيرا مقيمًا بمكة يشـتغل برعي الغنم ويشهد مع عمومته حلف الفضول وحرب الفجار، فلما بلغ عمره عشرين سنة خرج في هذه السفرة مع عير قومه ليشـتغل بالتجارة، ولعل هذه السـفرة هي التمهيد الذي وجه خديجة إلى رغبتها في رسول الله ﷺ أن يتجر لها بمالها مع ما عُرف به من الأمانة والصدق والعفة والسمو في الأخلاق، روى الطبري وابن هشام وابن كثير عن ابن إسحاق قال:

كانـت خديجـة بنـت خويلد بن أسـد بن عبـد العزى بن قصـي امرأة تاجرة ذات شـرف ومـال، تسـتأجر الرجال في مالها وتضاربهم إياه بشـيء تجعله لهـم منه، وكانت قريش قومًا تجارًا، فلما بلغها عن رسـول الله ﷺ ما بلغها من صدق حديثه وعظـم أمانته وكرم أخلاقه بعثـت إليه فعرضت عليه أن يخرج في مالها إلى الشـام تاجرًا، وتعطيه أفضل ما كانت تعطـي غيـره من التجار مع غـلام لها يقال له ميسـرة، فقبله منها رسـول الله ﷺ فخرج في مالها ذلك وخرج معه غلامها ميسـرة حتى قدما الشـام، فنزل رسول الله ﷺ في ظل شجرة

قريبًا من صومعة راهب من الرهبان، فأطلع الراهب رأسه إلى ميسرة فقال: من هذا الرجل الذي نزل تحت هذه الشجرة؟ فقال له ميسرة: هذا رجل من قريش، من أهل الحرم، فقال له الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي، ثم باع رسولُ الله ﷺ سلعته التي خرج بها واشترى ما أراد أن يشتري ثم أقبل قافلًا إلى مكة ومعه ميسرة، فكان ميسرة- فيما يزعمون- إذا كانت الهاجرة واشتد الحر يرى ملكين يظلانه من الشمس وهو يسير على بعيره، فلما قدم مكة على خديجة بمالها باعت ما جاء به فأضعفت أو قريبًا من ذلك، وحدثها ميسرة عن قول الراهب وعما كان يرى من إظلال الملكين.

رواية تخالف رواية بَحِيرَا وهي أحسن وأوفى مساقًا:

هذه الرواية تفيد أن خديجة هي التي رغبت في استئجار رسول الله ﷺ وهي التي طلبت إليه ذلك لما سمعته عن صفاته النبيلة وأخلاقه الحميدة، وتخالفها في ذلك رواية الواقدي عن نفيسة بنت منية أخت يعلى بن منية، وهي عند ابن سيد الناس في (العيون) أتم سياقًا وأحسن مساقًا قالت: لما بلغ رسول الله ﷺ خمسًا وعشرين سنة، وليس له بمكة اسم إلا (الأمين)، لِمَا تكامل فيه من خصال الخير. قال له أبو طالب: يا ابن أخي أنا رجل لا مال لي وقد اشتد الزمان علينا وألحت علينا

سـنون منكرة وليس لنا مادة ولا تجـارة، وهذه عير قومك قد حضر خروجها إلى الشـام، وخديجة بنت خويلد تبعث رجالًا من قومك في عيراتها فيتجرون لها في مالها ويصيبون منافع، فلـو جئتها فعرضتَ نفسـك عليها لأسـرعتْ إليك وفضلتك علـى غيرك لمـا يبلغها عنك مـن طهارتـك، وإن كنت لأكره أن تأتي الشـام وأخاف عليك مـن يهود ولكن لا نجد من ذلك بدًا، وكانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال كثيـر وتجارة تبعث بها إلى الشـام فتكـون عيرها كعامة عير قريش، وكانت تسـتأجر الرجال وتدفع إليهم المال مضاربة، وكانـت قريش قومًا تجارًا ومن لم يكن تاجرًا من قريش فليس عندهم بشـيء، فقال رسـول الله ﷺ: «فلعلها ترسـل إليّ في ذلـك» فقال أبو طالب: إنـي أخاف أن تولي غيرك فتطلب أمرًا مدبـرًا، وبلغ خديجة مـا كان من محاورة عمه له وقبل ذلك ما بلغهـا من صدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه، فقالت: ما علمـت أنه يريد هذا، ثم أرسـلتْ إليه، فقالت: إنه دعاني إلى البعثـة إليك ما بلغني من صدق حديثـك وعظم أمانتك وكرم أخلاقـك، وأنا أعطيك ضعف ما أعطي رجلًا من قومك، ففعل رسـول الله ﷺ ولقي أبـا طالب فذكر له ذلـك، فقال: إن هذا لرزق ساقه الله إليك.

فخـرج مع غلامها ميسـرة حتى قدم الشـام وجعل عمومته يوصون به أهل العير، حتى قدم الشـام فنزلا في سـوق بُصْرَى

في ظل شـجرة قريبًا مـن صومعة راهب يقال له (نسـطورا) ، فاطلع الراهب إلى ميسـرة- وكان يعرفه- فقال : يا ميسرة من هـذا الذي نـزل تحت هذه الشـجرة ؟ فقال ميسـرة : رجل من قريـش من أهـل الحرم ، فقال لـه الراهب : ما نـزل تحت هذه الشـجرة إلا نبي ، ثم قال لـه : في عينيه حمرة ؟ قال ميسـرة : نعـم ، لا تفارقه . قال الراهب : هو هـو وهو آخر الأنبياء ، ويا ليت أني أدركـه حين يؤمر بالخروج ، فوعى ذلك ميسـرة ، ثم حضر رسـول الله ﷺ سوق بصرى فباع سلعته التي خرج بها واشترى ، فكان بينه وبين رجل اختلاف في سلعة ، فقال الرجـل : احلـف باللات والعـزى ، فقال رسـول الله ﷺ «ما حلفـت بهما قـط وإني لأمرّ فأعرض عنهمـا » فقال الرجل : القـول قولك ثـم قال لميسـرة- وخلا به- : يا ميسـرة هذا نبي ، تجده أحبارنا منعوتًا في كتبهم ، فوعى ذلك ميسرة ثم انصرف أهلُ العير جميعًا .

وكان ميسرة يرى رسول الله ﷺ إذا كانت الهاجرة واشتد الحر يرى ملكين يظلانه من الشمس وهو على بعيره ، وكان الله عز وجل قد ألقى على رسـول الله ﷺ المحبة من ميسرة فـكان كأنـه عبد لرسـول الله ﷺ وباعوا تجارتهـم وربحوا ضعـف ما كانوا يربحون ، فلمـا رجعوا فكانوا بمر الظهران (وادٍ قريـب مـن مكـة) قال ميسـرة : يا محمـد انطلق إلى خديجة فأخبرها بمـا صنع الله لها على وجهك فإنها تعرف

لـك ذلك ؟ فتقدم رسـول الله ﷺ حتى دخل مكة في سـاعة الظهيـرة- وخديجة في عِليّة لها معها نسـاء فيهن نَفيسـة بنت منية- فرأت رسـول الله ﷺ حين دخل وهو راكب على بعيـره وملكان يظـلان عليه فأرته نسـاءها فعجبـن لذلك ، ودخـل عليهـا رسـول الله ﷺ فخبرهـا بما ربحوا فسُـرت بذلك ، فلما دخل عليها ميسـرة أخبرته بمـا رأت فقال لها ميسـرة : قد رأيت هذا منذ خرجنا من الشام ، وأخبرها بقول الراهب نسطورا وقول الآخر الذي خالفه في البيع ، وربحت فـي تجارتها ضعف مـا كانت تربح ، وأضعفت لرسـول الله ﷺ ضعف ما سمَّت له .

نظرة في الرواية الثانية:

وفي هذه الرواية ضروب من المعاني التاريخية ، فهي تذكر أن أبـا طالب هو الـذي رغب إلى محمد ﷺ أن يعرض نفسـه علـى خديجة بعد أن مهَّـد لهذه الرغبة بعذره وقلـة ماله ، وأن الزمـان قد اشـتد عليه والسـنين المنكرة ألحـت عليه وليس لـه مادة ثانية في بلـده ولا تجارة بعيدة يرجوهـا ، وبيَّن له أنه يحرص عليه أشـد الحرص ويذكـر وصية بحيرا الراهب له في ألا يُقدِمه الشام حذر اليهود .

وهـذا تصوير يقـرب القصة مـن طبيعة النفوس والأشـياء فيجعلها أقرب إلى الواقع التاريخي من تصوير رواية ابن إسحاق التي تقول : إن خديجة هي التي بعثت إلى رسول الله ﷺ بادئ

ذي بدء فعرضت عليه العمل في مالها. وفي هذه الرواية أيضا لـون من تصوير بعـض خصائص الخُلق الكريـم الذي امتاز به محمـد ﷺ: فعمـه قد عرض عليـه رغبته وحفهـا بلونين من الترغيب والإغراء، لون عاطفـي ولون مادي، فالعاطفي تمثل في وصف حال أبي طالب من قلة المال واشتداد الزمان وتقلب السـنين. والمادي تمثل في إشـعار محمد ﷺ أنه لا يرضى له أجـرًا مثل أجـر غيره من الرجال، بـل لا يرضى له دون ضعف رجـل من الرجال، فما كان من محمـد ﷺ إلا أن ردَّ على عمه فـي هـدوء الرجل الذي يشـعر أنه فـوق هذه المغريـات، فلا يعـرض نفسـه ولا يطلـب من أحد شـيئا إلا أن يكـون مكرمة مـن مكارم الرجال، وقـد تلطف مع عمه وترك المجال في يده واكتفى بقوله: «فلعلها ترسـل إليَّ في ذلك»، ولكن أبا طالب حرصًا على منفعة مواتية يخشـى إن هو تأنّى وتلبّث أن تفوت فلا تعود، أظهر تخوفه ذلك لمحمد ﷺ عساه يبعث فيه شيئًا من اللهفة والحرص على عرض نفسـه كما طلب منه فقال له: إني أخاف أن تولي غيرك فتطلب أمرًا مدَبَّرًا.

وبقـي محمد ﷺ في موقفه من العزة والتسـامي، فبلغ هذا الحوار خديجة، فرأت منفذًا أرسـلت منه صوتها تدعو محمدًا ﷺ وتعرض عليه العمل في مالها في إطار من التكريم والتعظيم يشعره أنها هي التي تتطلع إلى ذلك ولكنها ما كانت تعلم أنه يريده، فلما بلغ أبا طالب ما كان بين محمد ﷺ وخديجة من

اتفاق فرح فرحًا شديدًا، وقال لرسول الله ﷺ حين لقيه: هذا رزق ساقه الله إليك.

وفي هذه الرواية أيضًا ما يظهر من حرص عمومة رسول الله ﷺ وحذرهم اليهود، فقد علموا منذ سفرته الأولى وهو غلام في رفقة عمه أبي طالب وكان في العير معهم الحارث بن عبد المطلب من حديث الراهب بحيرا واليهود يعرفونه بأوصافه ويحسدونه على ما يأتيه الله من فضله، فهم يبغونه الغوائل لو قدروا عليه، فمن هنا كان أعمامه يوصون به أهل العير في هذه السفرة حتى يكون بنجوة من كيد اليهود، وقد قال له عمه أبو طالب ذلك في صراحة حين عرض عليه أمر خديجة ولكنه اعتذر إليه أنه لا يجد بدًا من سفره، وقد حفظ الله رسوله وحاطه برعايته حتى كانت هذه السفرة بما كان فيها من الخير والبركة ذات أثر مبارك في حياة محمد ﷺ.

رواية عن سفرة أخرى بمال خديجة:

وذكر أبو جعفر الطبري وابن كثير وابن سيد الناس عن ابن شهاب الزهري أنه قال: لما استوى رسول الله ﷺ وبلغ أشده وليس له كبير مال استأجرته خديجة بنت خويلد إلى سوق حباشة وهو سوق بتهامة، واستأجرت معه رجلًا آخر من قريش، فقال رسول الله وهو يحدث عنها: «ما رأيت من صاحبة لأجير خيرًا من خديجة، ما كنا نرجع أنا وصاحبي إلا وجدنا عندها تحفة من طعام تخبئه لنا».

ولعل هذه الرواية تعني سفرة أخرى في مال خديجة قبل سفرة الشام التي اتفق عليها جمهور الرواة، فيكون رسول الله ﷺ قد آجر نفسه من خديجة ليعمل لها في مالها تاجرًا مرتين، مرة إلى سوق حباشة بتهامة من أرض الجزيرة وهي أولاهما وكان فيها غير منفرد بل كان له رفيق من قريش يشاركه في العمل، ولعل هذا الرفيق هو الذي أشار إليه أبو طالب في قوله لرسول الله ﷺ: يا ابن أخي قد بلغني أن خديجة استأجرت فلانًا ببكرين ولا نرضى لك بمثل ما أعطته.

ومرة أخرى إلى الشام، وهي الثانية التي كان فيها رسول الله ﷺ مستقلًا بالعمل وليس معه من جهة خديجة سوى غلامها ميسرة لخدمته، ويرشح ذلك ما رواه البيهقي عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ «آجرت نفسي من خديجة سفرتين بقلوص(٢٥)»، فهذا الحديث صريح في أنه ﷺ سافر في مال خديجة سفرتين، ولم تحدد في الحديث الجهة التي كان إليها السفر، ورواية الجمهور حددت الشام، ورواية الزهري حددت سوق حباشة بتهامة، فتحمل كل سفرة على جهة بعينها لتتوافق روايات التاريخ، وظاهر قول أبي طالب المتقدم أن خديجة كانت قد تعاقدت مع القرشي ليسافر بمالها ببكرين، فلما علمت بما دار بين رسول الله ﷺ وعمه وعرفت رغبة أبي طالب في أن

(٢٥) القلوص من الإبل: الأنثى الشابة. (المجلة)

يلي رسـول الله ﷺ العمل في مالها ، واعتذرت عن سـبقها إلى اسـتئجار القرشـي بقولها : ما علمت أنه يريد هذا ، لم تر مانعًا من إشـراك رسول الله ﷺ مع القرشي اغتنامًا لفرصة استئجاره ، حتى إذا أتيحت لها فرصة استقلاله بالعمل أسرعت إلى انتهازها في المرة الثانية وهي التي كان السفر فيها إلى الشام .

***

تزوج محمد ﷺ
خديجة رضي الله عنها

بواعث هذا الزواج:

كان تقدير خديجة لمحمد ﷺ تقديرًا واقعيًا دافعًا لها على أن تفكِّر في شأنه تفكيرًا آخر أكبر من كونه عاملاً في مالها يتجر لها فيه فتربح ويربح، إنها عرفت محمدًا بما عرفه به قومه أمينًا صدوق الحديث، عزوفًا عن الدنيا، طموحًا لعوالي الأمور، متساميًا بنفسه عن مغامز المروءة، كسوبًا للخير، بل هي قد عرفت محمدًا ﷺ أكثر مما عرفه قومه، عرفته عاملا في مالها، وصحبه في سفره غلامها الأمين ميسرة، فحدثها عن أخلاق محمد ﷺ في السفر والعمل، وحدثها عما شهد من دلائل مستقبل هذا الفتى الكريم، وحدثها عن تنبؤات الرهبان، وحدثها عن مظاهر رعاية الله تعالى له، ورأت هي من مظاهر الرعاية ما عجّبت منه نساءها، وذكرت حديثا كان حدثها به يهودي في نسوة اجتمعن معها في عيد من أعياد قريش يتصل بمستقبل محمد ﷺ في الحياة ومستقبل الحياة على يد محمد ﷺ، قال الزرقاني في شرح المواهب: ذكر ابن إسحاق في المبتدأ قال: كان لنساء قريش عيد يجتمعن فيه، فاجتمعن يومًا فيه، فجاءهن يهودي فقال: يا معشر نساء قريش إنه يوشك فيكن نبي، فأيتكن استطاعت أن تكون له

فراشًا فلتفعل، فحصبنه وقبَّحنَهُ وأغلظن له، وأغضت خديجة على قوله ولم تعرض فيما عرض فيه النساء ووقر ذلك في نفسها، فلما أخبرها ميسرة بما رآه من الآيات وما رأته هي قالت: إن كان ما قال اليهودي حقا ما ذاك إلا هذا (تعني محمدا ﷺ) ثم هي امرأة خلية من الزوج، شريفة حسيبة، ذات مال كثير، يحتاج إلى يد أمينة تديره وتنميه، ومحمد ﷺ في ذروة الشرف من قومها، أليس هو ابن عبد المطلب شريف قريش وسيدها؟ وهو أنبل فتى وأعقله، وأعظمه أمانة وأكمله مروءة، وهو خلي لم يتزوج وقد بلغ سن اكتمال الشباب، فما يمنعها أن تكون زوجا له وما يمنعه أن يكون زوجا لها؟ فلتدس إليه صديقة من صديقاتها اللائي يتنسمن رغباتها فتلقي إليه هذه الرغبة إلقاء عارضا لتعرف مكانها من نفسه.

رواية عن رغبة خديجة في الزواج وتعليق عليها:

روى ابن سعد من طريق شيخه الواقدي عن نفيسة بنت منية قالت: كانت خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي امرأة حازمة جلدة شريفة مع ما أراد الله بها من الكرامة والخير، وهي يومئذ أوسط قريش نسبًا وأعظمهم شرفا وأكثرهم مالا، وكل قومها كان حريصا على نكاحها لو قدر على ذلك، قد طلبوها وبذلوا لها الأموال، فأرسلتني دسيسًا إلى محمد ﷺ بعد أن رجع من عيرها من الشام، فقلت: يا محمد ما يمنعك أن تزوّج؟ فقال: «ما بيدي ما أتزوج به»

قلـت : فإن كفيت ذلك ودعيت إلى الجمال والمال والشـرف والكفـاءة، ألا تجيب؟ قال: «فمن هـي»؟ قُلت: خديجة، قال «وكيـف لي بذلك»؟ قلـت: عليّ، قال: «فأنـا أفعل» فذهبتُ فأخبرتها، فأرسـلت إليه أن ائتِ لسـاعة كذا وكذا، وأرسلت إلـى عمها عمرو بن أسـد ليزوجها فحضر، ودخل رسـول الله ﷺ فـي عمومتـه فزوّجه أحدهـم، فقال عمرو بن أسـد: هذا البضع لا يُقدع أنفه. وتزوجها رسـول الله ﷺ وهو ابن خمس وعشـرين سـنة وخديجة يومئـذ بنت أربعين سـنة وُلدت قبل الفيل بخمس عشرة سنة.

في هذه الرواية أن خديجة هي التي تسـامت بالرغبة في أن يكون محمد ﷺ زوجا لها فدسـت إليه صديقتها نفيسة بنت منيـة، وفيها أن محمدا ﷺ كان واضح القصد، واضح العذر، فهـو لم يتكلف التأبـي على الزواج ولم يتظاهـر بعدم حاجته إليـه، بل لعله أبدى أنه في حاجـة إليه ولكن يمنعه من الإقدام أن يـده لا تملـك ما يتـزوج به، لقـد وضح الطريق وسـهلت مهمـة الصديقة الأمينة ودُعِيَ محمـد ﷺ إلى الجمال والمال والشـرف والعقل والكمـال، إلى خديجة بنت خويلد سـيدة نسـاء العالميـن فأجـاب كفؤا كريمًـا، وزوَّجها عمُّهـا وزوَّج محمـدًا ﷺ عمُّـه، وكانت خديجة في سـن اكتمـال الأمومة وكان محمد ﷺ في سـن اكتمال الشباب، وفي هذا من أسرار الموافقـات النفسـية ما تضيق دون أدائه العبـارة؛ لأن محمدا

ﷺ كان بعد ما مضى من عمره فيما قدر الله من ألوان الحياة الصارمة إلى عاطفة الأمومة وحنانها وبرها أدنى منه حاجة إلى عاطفة الزوجة وحبها، وخديجة كانت هي الزوجة في حبها، وهي الأم في حنانها وبرها، ومن ثم كانت خديجة امرأة واحدة لم تتكرر في الحياة.

هذه الرواية في تزوُّج محمد ﷺ بخديجة هي أثبت الروايات وأوفاها، وهي صريحة في أن الذي زوَّجها منه هو عمها عمرو بن أسد، وهذا مروي في حديث عروة عن عائشة وحديث عكرمة عن ابن عباس. ففي حديث عائشة أن عمها عمرو بن أسد زوَّجها رسولَ الله ﷺ وأن أباها مات قبل الفجار، وفي حديث ابن عباس: زوَّج عمرو بن أسد بن عبد العزى بن قصي خديجة بنت خويلد النبيَّ ﷺ وهو يومئذ شيخ كبير لم يبق لأسد لصلبه يومئذ غيره.

روايات أخرى عن زواجه من خديجة:

وروى البيهقي أن عمار بن ياسر كان إذا سمع ما يتحدث به الناس عن تزويج رسول الله ﷺ خديجة وما يكثرون فيه يقول: أنا أعلم الناس بتزويجه إياها، إني كنت له تربا وكنت له إلفا وخدنا وإني خرجت مع رسول الله ﷺ ذات يوم حتى إذا كنا بالحزورة أجزنا على أخت خديجة وهي جالسة على أدم تبيعها، فنادتني فانصرفت إليها، ووقف لي رسول الله ﷺ فقالت: أما لصاحبك هذا من حاجة في

تزويـج خديجة؟ قال عمار: فرجعت إليـه فأخبرته، فقال: «بلى لعمري» فذكرت لها قول رسول الله ﷺ فقالت: اغدوا علينا إذا أصبحنا، وغدونا عليهم فوجدناهم قد ذبحوا بقرة وألبسـوا أبا خديجة حلة، وصفـرت لحيته، وكلَّمت أخاها فكلم أباه، وقد سُقي خمرا، فذكر له رسول الله ﷺ ومكانه وسـأله أن يزوجه فزوجه خديجة، وصنعوا من البقرة طعاما فأكلنـا منه ونام أبوها ثم اسـتيقظ صاحيا، فقـال: ما هذه الحلـة؟ وما هـذه الصفرة؟ وهـذا الطعام؟ فقالـت له ابنته التي كانت قد كلمت عمارًا: هذه حلة كسـاكها محمد بن عبـد الله ختنك، وبقـرة أهداها لك فذبحناهـا حين زوَّجته خديجـة، فأنكر أن يكـون زوَّجه، وخـرج يصيح حتى جاء الحِجْر، وخرج بنو هاشم برسول الله ﷺ فجاءوه فكلَّموه. فقـال: أين صاحبكم الـذي تزعمون أنـي زوَّجته خديجة؟ فبرز له رسـول الله ﷺ فلما نظر إليـه قال: إن كنت زوَّجته فسبيل ذلك، وإن لم أكن فعلت فقد زوَّجته.

وروى الطبري عن ابن شـهاب الزهري قال: وكان الذي زوَّجهـا أباها خويلدا، وكانت التي مشـت فـي ذلك مولاة مولدة من مولدات مكة، وكذلك عند ابن إسحاق، فقد جاء في روايته: لما أخبرها ميسـرة بما أخبرها بعثت إلى رسول الله ﷺ فقالت له- فيما يزعمون- : يا ابن عم إني قد رغبت فيك لقرابتك ووسطتك في قومك وأمانتك وحسن خلقك

وصدق حديثك، ثم عرضت عليه نفسها، وكانت خديجة يومئذ أوسط نساء قريش نسبًا وأعظمهن شرفا وأكثرهن مالا، كل قومها كان حريصا على ذلك منها لو يقدر عليها، فلما قالت ذلك لرسول الله ﷺ ذكر ذلك لأعمامه، فخرج معه حمزة بن عبد المطلب عمه حتى دخل على خويلد بن أسد فخطبها إليه فتزوجها.

وقد ساق ابن سعد في الطبقات رواية البيهقي مختصرة عن أبي مجلز فقال: إن خديجة قالت لأختها انطلقي إلى محمد فاذكريني له، وإن أختها جاءت فأجابها بما شاء الله، وأنهم تواطئوا على أن يتزوجها رسول الله ﷺ، وأن أبا خديجة سُقي من الخمر حتى أخذت فيه ثم دعا محمدا ﷺ فزوَّجه، وألقيت على الشيخ حلة فلما صحا قال: ما هذه الحلة؟ قالوا: كساكها ختنك محمد ﷺ فغضب وأخذ السلاح وأخذ بنو هاشم السلاح وقالوا: ما كانت لنا فيكم رغبة، ثم إنهم اصطلحوا بعد ذلك.

قال ابن سعد: أخبرنا محمد بن عمر - الواقدي- بغير هذا الإسناد أن خديجة سقت أباها الخمر حتى ثمل، ونحرت بقرة وخَلَّقَتهُ بِخَلُوقٍ(٢٦) وألبسته حلةً حَبِرَة، فلما صحا قال: ما هذا العقير؟ وما هذا العبير؟ وما هذا الحبير؟

(٢٦) طِيبٌ يصنع من الزعفران وغيره. (المجلة)

قالت : زوَّجتَني محمدا ﷺ ، قال : ما فعلت ، أنا أفعل هذا وقد خطبك أكابر قريش فلم أفعل ؟ !

قال الواقدي : فهذا كله عندنا غلط وَوَهَلٌ (وهْمٌ وضعف) ، والثبت عندنا المحفوظ عن أهل العلم أن أباها خويلد بن أسد مات قبل الفجار ، وأن عمها عمرو بن أسد زوَّجها رسولَ الله ﷺ . ونقد الواقدي مُنصبٌّ على جميع الروايات التي أسندت تزويج خديجة من رسول الله ﷺ إلى أبيها خويلد وهو نقد تاريخي نسفها نسفًا ، ولم يُقِمْ لها وزنا ولو لم ينهض الواقدي به لنادى بزيفها ما فيها من تدليس وخداع تأباه أخلاق العرب عامة ، وتنأى عنه مكارم محمد ﷺ وتساميه عن هذه الأساليب المدلسة التي لم يعرف عنه في حياته أنه سلك قط سبيلها أو حام حولها .

قال الزرقاني في شرح المواهب : وفي سيرة الزهري -وهي أول سيرة ألفت في الإسلام- أنه ﷺ قال لشريكه الذي كان يتجر معه في مال خديجة : هَلُمّ فلنتحدث عند خديجة ، وكانت تكرمهما وتتحفهما ، فلما قاما من عندها جاءت امرأة فقالت له : جئت خاطبا يا محمد ؟ قال : كلا ، قالت : ولمَ ؟ فوالله ما في قريش امرأة وإن كانت خديجة إلا تراك كفؤا لها ، فرجع ﷺ خاطبا لخديجة مستحييا منها .

وهذه المرأة المذكورة في هذه الرواية يحتمل أن تكون هي أخت خديجة المذكورة في رواية عمار بن ياسر ،

ويحتمل أنها هي نفيسة بنت منية، ويحتمل أنها المولدة المذكورة في رواية الزهري عند الطبري، وهذا أقرب الاحتمالات لاتفاق مصدر الروايتين فيُحمل المطلق منهما على المقيَّد، ويردّ المبهم إلى المفسر.

وهذه الرواية تشير إلى أن حديثا تهامس به المتصلات بخديجة من صواحباتها، فأرادت هذه المرأة الوسيطة أن يكون الهمس جهرا والرغبة حقيقة واقعية، فحدثت محمدا ﷺ إثر خروجه وصاحبه من عند خديجة لتشعره بالرغبة فيه حتى يقدم في غير تردد، وجعلت خديجة مثلا في رفعة الشرف، وهي تقصدها بالحديث قصدا لا يشرك معها غيرها، ولكنها صاغت قصدها في عبارة لا يدرك لحنها إلا المفردون من الحذاق، ولما أدرك محمد ﷺ قصدها أدركه من الحياء ما يدرك الرجل الكريم، فرجع على استحياء منه خاطبا خديجة، وعند ابن سعد أن خديجة قالت له: اذهب إلى عمك فقل له: عجِّل إلينا بالغداة، فلما جاء قالت: يا أبا طالب ادخل على عمي فقل له يزوِّجني من ابن أخيك، فقال أبو طالب: هذا صنع الله.

خطبة زواجه عليه السلام من خديجة:

وذكر المبرِّدُ أن أبا طالب خطب خطبة الإملاك فقال: الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرْع إسماعيل وضِئضئ (أصل) معد، وعنصر مضر، وجعلنا حضَنَة بيته،

وسُـوَّاس حرمه، وجعل لنا بيتًا محجوبًـا وحرمًا آمنا، وجعلنا الحـكام على الناس. ثم إن ابن أخي هـذا محمد بن عبد الله لا يـوزن برجل إلا رجح به، فـإن كان في المال قل فإن المال ظل زائـل وأمـر حائل، ومحمد مـن قد عرفتم قرابتـه، وقد خطب خديجة بنت خويلد وبذل لها ما آجله وعاجله من مالي عشرين بكرة، وفي رواية: وقد بذل لها من الصداق اثنتي عشرة أوقية ذهبًا ونشًـا أي نصف أوقية، ووفق بعضهـم بأن أبا طالب دفع البكرات من ماله ودفع رسـول الله ﷺ الذهب من عنده فكان الجميع صداقًا لها، ثم قال أبو طالـب: وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل، فزوَّجها.

وفـي المنتقى: فلما أتـم أبو طالب الخطبـة تكلم ورقة بن نوفـل -وكان حاضرًا في رءوس مضـر- فقال: الحمد لله الذي جعلنا كما ذكرت وفضلنا على ما عددت، فنحن سادة العرب وقادتها، وأنتم أهل ذلك كله، ولا تنكر العشـيرة فضلكم ولا يـرد أحد من الناس فخركم وشـرفكم، وقد رغبنا في الاتصال بحبلكم وشرفكم، فاشهدوا عليَّ معاشر قريش بأني قد زوَّجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبد الله على أربعمائة دينار، ثم سكت. فقال أبو طالب: قد أحببت أن يشركك عمها، فقال عمها: اشهدوا عليّ يا معشر قريش أني قد أنكحت محمد بن عبد الله خديجة بنت خويلد، وشهد على ذلك صناديد قريش.

وورقة ابن عم خديجة ومن أشـراف قومها وذوي أسنانهم،

فـلا غرابـة أن يقدِّموه في الرد على خطبة أبـي طالب ، وكأنما أحب أبـو طالب أن يوثق العقد ويؤكـد الرضا منهم فأحب أن يشارك عم خديجة ابن عمها ، فأسرع عمها إلى إجابة أبي طالب إلى طلبته ، وفي رواية أن أخاها عَمْرًا هو الذي تولى زواجها .

والناظر في هذه الروايات يرى أن بعضها يكمل بعضًا ، وأن الرواة لمَّا اختلفت مصادرهم اختلفت عباراتهم ، وأخذ كل راوٍ بطرفٍ من القصة وحكاه كما سمع .

وقـد أولم رسـول الله ﷺ علـى زواجه بخديجـة ، وفرحت خديجـة بهـذا الـزواج فرحًا شـديدًا ، روي أن رسـول الله ﷺ لمـا تزوجهـا ذهب ليخـرج فقالت لـه : إلى أين يـا محمد ؟ ! اذهـب وانحر جـزورًا أو جزوريـن وأطعم النـاس ففعل ، وقال فـي المنتقـى : فأمرت خديجـة جواريها أن يرقصـن ويضربن بالدفـوف ، وقالت : مر عمك ينحر بكرًا مـن بكراتك وأطعم النـاس ، وهلم فقِل مـع أهلك ، فأطعم النـاس ودخل ﷺ فقال معهـا ، فأقـر الله عينـه ، وفرح أبو طالـب فرحًا شـديدًا وقال : الحمد لله الذي أذهب عنا الكرب ودفع عنا الهموم .

***

ظَاهِرتَان في حَيَاة محَمّد ﷺ

ظاهرتان اجتماعيتان كانتا تسودان حياة محمد ﷺ منذ أن وُلد ثم نهد فشب عن الطوق، واستوى غلامًا يافعًا في شباب قريش وفتى سويًا بين فتيانهم، إلى أن اقترن بزوجه الطاهرة الأمينة الوفية السيدة خديجة بنت خويلد، وسِنه -إذ ذاك- على أرجح روايات التاريخ خمس وعشرون سنة.

الأولى شظف العيش:

أما الظاهرة الأولى فهي ظاهرة اجتماعية تسم البيئة العربية كلها بميسمها، وتُعنْوِن الحياة فيها بعنوانها، فهي ليست من الظواهر التي تعد من خصائص محمد ﷺ في شبابه إلا كما يحمل الفرد عنوان الجماعة لكونه منها بمكان الطُّرة[٢٧] من الكتاب، تلك هي ظاهرة شظف العيش وخلو اليد من حطام الدنيا، فقد وُلد محمد ﷺ يتيمًا لم يرث من أبيه غير خمسة أجمال وغنيمة وجارية، وهي شيء ضئيل بالنظر لما كانت تضطرب به مكة عامة وقريش خاصة من أموال مؤثلة أو تجارات مدبرة تدر الربح في المواسم والأسواق، وقد عرف التاريخ أن أظآر بني سعد ومرضعات هوازن أعرضن عن محمد ﷺ وهو ملتف بلفائفه في مهده، وقلن: يتيم لا مال له، فما

(٢٧) الطرة: اسم الشيء المقطوع، وطرف كل شيء، والمراد هنا الورقة المقطوعة من الكتاب. (المجلة)

عسى أن تصنع لنا أمه أو جده، وعرف التاريخ أن جده وعمه كفلاه حتى اشتدت قناته فآجر نفسه يرعى غنم أهله، وعرف أنه بعد ذلك آجر نفسه من خديجة ليعمل في مالها تاجرًا لها، فليس في تاريخ شباب محمد ﷺ فترةٌ تغيَّرَ فيها وضعه المادي، بل ظل على حالة واحدة لازمته منذ ولادته، بل ربما كانت حاله في طفولته أيسر منها في شبابه.

ولهذه الظاهرة أثرها العميق في تمحيص خصيصة الإِنسانية العليا في الأفراد الذين تلزمهم أيام شبابهم، وهي أيام اجتماع قوى الاندفاع وعناصر الهوى النفسي، ونزغات المراهقات ومنافذ الغرائز المادية النهمة، ومسارب استطالة الشباب وطموحه، وهو تمحيص شاق أشد المشقة، ولا تبصر له إلا نفس قوية التركيب البنائي في جوهر تكوينها، ومن ثم كانت مثله التاريخية آحادًا من الأفذاذ في القرون والحقب، ومن عجائبه أنه يتجاوب في يسر مع النزعات الدينية الداعية إلى الإِيمان بالغيب، فتكثر نسبيًا أمثلته من النماذج الإِنسانية الحية في أوقات تسود فيها الروحانية، فإِذا عاشت شخصية إنسانية في عصر مادي وبيئة مادية وحياة مادية، ثم تعرَّضت لهذا الامتحان الفاتن الممحص، وخرجت منه كما خرجٍ محمد ﷺ في شبابه أكمل الناس إنسانية وأعظمهم خلقًا وأضخمهم أمانة، وأبعدهم عما يشين مروءة الرجال، حتى ما يستطيع عدو بَلْه وليًا أن يقول

فيه لو وليت، ومن ثم كانت هذه الشخصية هي النموذج الأعلى لكمال خصيصة الإِنسانية العليا في فرد من بني الإِنسان.

الظاهرة الثانية تكافؤ الخُلُق:

أما الظاهرة الثانية فهي ظاهرة التكافؤ الخُلُقي في شخصية محمد ﷺ، ونعني بالتكافؤ الخلقي أن أخلاق محمد ﷺ كانت كلها تنبع من فطرته بنسب متفقة، فصبره مثل شجاعته، وشجاعته مثل كرمه، وكرمه مثل حلمه، وحلمه مثل رحمته، ورحمته مثل مروءته، وهكذا لا تجد له خُلُقًا في موضعه من الحياة يزيد أو ينقص على خلق آخر في موضعه منها، ومن هنا كان جماع أمره عند قومه (الأمين) وهذا اسم يمثِّل التكافؤ الخُلقي أصدق تمثيل.

هذا التكافؤ الخُلقي في وجوده الواقعي، في شخصية محمد ﷺ يوشك أن يكون معجزة الحياة في الإِنسان؛ لأن التاريخ لم يذكر من النماذج العليا للبشرية من كان هذا التكافؤ الخلقي خليقته العامة سوى محمد ﷺ، وإذا ذكر غيره من النماذج العليا ذكره عنوانًا لتبرير جزئي في بعض الأخلاق والفضائل، فهذا مَثَلٌ مضروب في الصبر، وذاك في الحلم، وثالث في الكرم، ورابع في الشجاعة، وهكذا تتفرق النهايات في الأخلاق والفضائل في نماذج متعددة، ولكنها تجتمع متكافئة في شخصية محمد ﷺ، وهذا هو سر الإِعجاز الإِنساني في حياته ﷺ.

وهذا التكافؤ الخلقي في وجوده الواقعي في شباب محمد ﷺ معجزة الإنسان في الحياة لأن الشباب معترك الغرائز، وهي مختلفة الأغراض والغايات، فالتكافؤ الخلقي في الشباب ضربٌ من المحالات في متعارف الحياة، فإذا حققه الوجود الواقعي في شباب محمد ﷺ كان وجوده معجزة الإنسان في الحياة.

وهذا التكافؤ الخلقي في وجوده الواقعي في شباب محمد ﷺ مع ملازمة الظاهرة الاجتماعية الأولى لحياته في شبابه ضرب آخر من الإعجاز الإنساني في الحياة؛ لأن تلك الظاهرة الاجتماعية كانت قمينة أن تدعو الشباب إلى طيش الغرائز، فتنقلب به الفضائل إلى رذائل جامحة، فوجود ضابط نفسي يعصم الإنسان من الانزلاق وراء تيارات الغرائز في إبان قوتها العارمة هو الآية الكبرى على أن التكافؤ الخلقي الذي ينبع منه ذلك الضابط النفسي ليس من صنع الإنسان.

والتكافؤ الخلقي بهذا المقياس لم تعرفه الحياة الواقعية لإنسان غير محمد ﷺ، وهو في شباب محمد ﷺ مفطور مجبول، لم يصنعه علم ولا تثقيف؛ لأن بيئة محمد ﷺ في شبابه لم تكن بيئة علم وثقافة، ومن الطبيعي أن تكون ثمرات هذا التكافؤ الخلقي محدودة بحدود البيئة التي عاش فيها، حتى إذا أتيح له أن يمتد ويتسع مع الرسالة العامة الخالدة امتد واتسع فكان هو العنوان الذي رسم به القرآن الكريم الفضيلة

العليـا في حياة محمد ﷺ ، فقال في معـرض الرد عنه مدافعًا ومادحًا : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (القلم : ٤) .

وهـذا التعبير في موضعه يكافئ تعبير الفطرة الملقى على ألسنة قومه في تسميته (الأمين) ، فكما مثّل (الأمين) التكافؤ الخلقي هناك أصدق تمثيل مثَّله هنا أي في دور الرسالة العامة الخالدة (الخلق العظيم) أصدق تمثيل ، والفرق بين التعبيرين هو الفرق بين محمد المرسل رحمة للعالمين ، ومحمد الشاب الأميـن ، وفي تعبير القرآن الكريم إشـارة إلى أثـر في التكافؤ فـوق أثر الفطرة والجبلة ، هو أثر النبوة والرسـالة ، وهو معنى ما يشـير إليه الأثر الشـريف الذي رواه ابن الأثيـر في النهاية من قوله ﷺ : "أدبني ربي فأحسـن تأديبي" ، ولهذا الكلام بقية تذكر في شـيء من التفصيـل المقرون بالأمثلـة الواقعية عند الحديـث عن أخلاق محمد رسـول الله ﷺ ، وإنما قصدنا هنا إلى الإشـارة العابرة لنبين أن الخلـق الأصيل النابع من الفطرة لا تملـك المؤثرات الطارئـة أن تغيره ، وأن هذا الخلق الأصيل النابع من الفطرة يستطيع أن يتغلب على الظواهر الاجتماعية ويوجههـا فـي طريـق الفضيلـة ، حتى تصبـح تلـك الظواهر عنـد صاحب هذا الخلق الأصيل النابع مـن الفطرة فضيلة من فضائله .

هكذا يصور التاريخ الواقعي شخصية محمد ﷺ في شبابه ، حتى تزوج خديجة ، وهي امرأة حسـيبة شـريفة كثيرة المال ،

عرفت محمدًا ﷺ في شظف عيشه وقلة ذات يده، وعرفته في تكافؤه الخلقي، فرغبت فيه لهذه المعرفة، وتزوجته بعد هذه المعرفة، فأصبح -عرفًا- مالها ماله وثراؤها ثراءه، وغدا محمد ﷺ بين عشية وضحاها من أغنياء قريش، وذوي ثرواتها، ولكن محمدًا ﷺ ظل بعد هذا الثراء الغامر كما كان منذ وُلد ونهد وشب يعيش في شظف عيشه، لا من قلة المال في يده، بل لأن خصيصة التكافؤ الخلقي عنده طبعته على الزهادة في الحياة المادية المترهلة التي كانت تحياها مكة وتعيش فيها قريش، وطبعته على التسامي بنفسه عن المطامع التي تتحلب لها أشداق الماديين إذا هبط عليهم الثراء من غير كد ولا تعب.

فأثرُ التكافؤ الخلقي هنا أبلغ من أثره هناك؛ لأن حياة محمد ﷺ قبل زواجه خديجة كانت حياة تقلل من الدنيا، لأنها كانت في يده قليلة أو لأنه لم يكن في يده منها شيء، فالفضيلة فيها في قوة الصبر على عدم التطلع إليها وتطلبها بما يُميِّل ميزان التكافؤ الخلقي فيبطل عمله، وحياته ﷺ بعد زواج خديجة حياةُ تَقَلُّل من الدنيا وهي ملء يده، فالفضيلة فيها في قوة الصبر معها، عن الانزلاق في غمرات المادية التي تدفع إلى الانزلاق فيها البيئة ومؤثراتها.

ومضى محمد ﷺ في حياته الجديدة أمينًا مع نفسه، أمينًا مع قومه، أمينًا مع زوجه، أمينًا لماضيه، أمينًا لمستقبله،

وبقي يعيش في ظاهرتيه من شظف العيش والتكافؤ الخلقي حتى كأن آخر حياة شبابه منهما صورة من أولها، وظل يتجر في مال زوجه خديجة، ولكن التاريخ لم يحدثنا عن رحلات له خارج جزيرة العرب بعد زواجه.

وحدثتنا الروايات أنه كان يأتي المواسم والأسواق الداخلية، يبيع ويشتري، ويلتمس معاشه فيها، فقد روى ابن كثير في مساءلة قريش وتعنتهم مع رسول الله ﷺ بطلب أنواع من الآيات وخوارق العادات على وجه العناد أنهم قالوا: إن كنت رسولاً - كما تزعم - فاسأل ربك أن يجعل لنا جنانًا وكنوزًا وقصورًا من ذهب وفضة ويغنيك عما نراك تبتغي، فإنك تقوم في الأسواق وتلتمس المعايش كما نلتمسها حتى نعرف فضل منزلتك من ربك. وفي أحاديث قس بن ساعدة أن رسول الله ﷺ كان قبل البعثة يرد أسواق العرب عكاظ وذا المجاز ومجنة، وأنه رأى قسًا فيها وسمع كلامه وهو يدعو الناس ويذكرهم نبيًا أظلهم وقته ودينًا خيرًا من دينهم.

وقد ذكرنا فيما سبق حديث أبي سفيان وقصته مع أمية بن أبي الصلت وأنه قدم إلى مكة بعد سفره إلى اليمن تاجرًا، فقال: فبينا أنا في منزلي جاءني الناس يسلمون علي ويسألون عن بضائعهم حتى جاءني محمد بن عبد الله - وهند عندي تلاعب صبيانها - فسلم عليّ ورحَّب بي وسألني عن سفري ومقامي، ولم يسألني عن بضاعته، ثم قام فقلت لهند: والله

إن هـذا ليعجبني، ما من أحد من قريش له معي بضاعة إلا وقد سـألني عنها، وما سـألني هذا عن بضاعته، قال أبو سـفيان: فبينـا أنا أطوف بالبيـت إذ بي قد لقيته فقلت له: إن بضاعتك قد بلغت كذا وكذا وكان فيها خير فأرسـل من يأخذها ولست آخـذ منـك فيهـا ما آخذ مـن قومي فأبـى عليّ، وقـال: إذن لا آخذهـا، قلت: فأرسـل فخذها وأنا آخذ منك مثـل ما آخذ من قومي، فأرسـل إلى بضاعته فأخذهـا وأخذت منه ما كنت آخذ من غيره.

تنسكه عليه السلام وتأمله في جلال الكون:

فهـذا ونحوه صريح في أن محمـدًا ﷺ كان في هذه المدة التـي تقع بين زواجـه وبعثته يتسـبب لمعاشـه بالتجارة على نهج قومه فيها، يباشرها بنفسه في الأسواق الداخلية ويؤاجر عليها أهل المعرفة في الرحلات الخارجية إلى اليمن أو الشام، ولم نرَ في شيء من الروايات أنه اشتغل بشيء آخر غير التجارة في التماس معاشـه بعد زواجه، وكان كلمـا تقدمت به الحياة ازداد انطواء عن حياة الناس، وحُبِّب إليه الاعتزال والتنسُّـك، فكان يتنسـك في غار حراء يطعم المساكين ويفكر في جلال الوجـود وعظمـة الكـون، ويتأمل فيمـا حوله من حـال قومه وإغراقهـم في وثنيتهـم البليـدة وماديتهم المظلمـة، وينظر فيـرى في طيات هذه الكُسَـف الحالكة ومضات من نور تلمع هنا وهناك، في أشـخاص هؤلاء المتحنفيـن ممن خالطوا أهل

الكتاب فسمعوا عن الدين الحق شيئًا، فطلبوه عندهم فلم يجدوا معهم إلا أخلاطًا من تحريفات وتأويلات فاسدة لبّست الحق بالباطل، وطلبوه في مجالات عقولهم وفطرهم فقصرت بهم عن الغاية، ولكنها رفعتهم من حضيض الوثنية إلى ضرب من المعرفة الحائرة أرفع درجاتها ما يتمثل في قول زيد بن عمرو بن نفيل: اللهم إني لو أعلم أحب الوجوه إليك عبدتك به ولكني لا أعلم، ثم يسجد على راحته، وكان زيد أمثل الطائفة وأعدلها أمرًا، وقد كان شامَ اليهودية والنصرانية فلم يرضَ شيئًا منهما(٢٨)، وكان يقول: آمنت بما آمن به إبراهيم، ويقول: أنفي لك عان راغم، مهما تجشمني فإني جاشم، وقد شهد له النبي ﷺ أنه يبعث يوم القيامة أمة وحده.

***

(٢٨) المراد: تعرَّف عليهما من شام الشيءَ: نظر إليه، أو حزره وقدَّره. (المجلة)

تعَبُّدُه ﷺ

قبل البعثة

تعبُّده عليه السلام قبل البعثة وأقوال العلماء فيه:

والـذي يلفـت النظر ويدعو إلى التأمـل أن تتضافر روايات التاريـخ بالحديث عن ورقة بـن نوفل وتنصُّره، وزيد بن عمرو وتحنفـه، وقس بـن سـاعدة وترهبـه، وأمية بن أبـي الصلت وتطلعـه، ولكنها تسـكت عن محمد ﷺ في هـذه الفترة من شـبابه، فـلا تذكـر عنه إلا أنـه كان من نُسَّـاك قريـش، يخلو بغـار حراء يتعبد فيه الليالي ذوات العـدد، يطعم من جاءه من المسـاكين، حتـى إذا قضى تحنفه نزل فطـاف بالبيت ثم ألَمَّ بأهله وتزود لمثلها، وعاد إلى معتكفه.

ومـن هنا تعددت أقاويل العلماء وروايات التاريخ في تعبده علـى أي نهـج كان؟ هل كان بطريق الاسـتغراق فـي التفكير والتأمل في ملكـوت الله تعالى، ومظاهر الوجود وعجائبه مما يقطـع العقـل أنـه لا يكون إلا عن قـدرة قاهـرة وإرادة مدبرة، وحكمـة سـامية، والخلـوة في الغـار مما يسـاعد على ذلك، ويكشـف عن البصائر أسـجاف القيود والحـدود، ويعبر بها إلـى آفاق الحقائق العليا حيـث الدلائل القاهرة على وجود الله ووحدانيتـه وصمديته، وهذا هو الذي جنح إليه جمهور الأمة. وحذاق العلماء من السـلف والخلف. قال الزرقاني في شـرح

المواهب: ولم يـأت تصريح بصفة تعبده بحراء، فيحتمل أنه أطلـق علـى الخلوة بمجردهـا تعبدًا، فإن الانعـزال عن الناس ولا سـيما من كان على باطل عبـادة، وعن ابن المرابط وغيره أنـه ﷺ كان يتعبـد بالفكر، وهـذا هو قول الجمهـور. وقال أيضًـا: وفي تعبده قبل البعثة بشـريعةٍ أم لا قـولان، الجمهور علـى الثانـي أي إنه كان يتعبـد بالفكر والاجتهـاد فيما يصل إليه فكره مـن تقديس الله تعالى، وقال ابن كثير: وقد اختلف العلماء في تعبده عليه السـلام قبل البعثة، هل كان علي شرع أم لا؟ وما ذلك الشرع؟ قيل شرع نوح، وقيل: شرع إبراهيم، وهو الأشـبه الأقوى وقيل: موسى، وقيل: عيسى، وقيل: كل ما ثبت أنه شرع عنده اتبعه وعمل به.

وهـذا القول الأخيـر ـ وإن رجحه بعـض الباحثين ـ لا طائل تحتـه؛ لأن الشـرع هـو مـا شـرع الله لأنبيائه ورسـله بطريق الوحـي إليهم، ولم يعرف فـي جزيرة العرب شـرع أوحى الله به إلى رسـول من أنبيائه وبقيت آثاره في أحاديث الناس سوى ما عرف من شـرع إبراهيم وإسـماعيل وأثرهمـا الخالد ببناء الكعبة المشـرفة وجعلها بيتًا لله تعالى محجوجًا، يتعبد الناس بالطواف حوله والدعاء والتضرع عنده.

وسوى ما عُرف من شريعة موسى وعيسى -عليهما السلام- عـن طريق اليهود والنصارى الذيـن كانوا يتواطنون أماكن من الجزيرة العربية في شـمالها وجنوبهـا، وكانوا يتحدثون عن

شرائعهم متفاخرين بها على وثنية الجمهور من العرب.

ولا طريق لإثبات شرع إلهي في هذه الجزيرة الحبيسة، بجبالها ووديانها وصحاريها القاحلة الجرداء غير ما كان يُسمع من أفواه المتحنفين، الذين كانوا يتطلعون بفطرهم - التي أنكرت سخف ما كان من انحدار العقلية الجاهلية عند سواد الناس إلى وثنية بليدة مزرية بالعقل الإنساني - إلى لون من الهداية يرقى بعقولهم عن مستوى التعبد للأحجار والأشجار.

وغير ما كان يتحدث به رهبان النصارى وأحبار اليهود من أقاويل عن شرائعهم تحدثًا يغلفها بالتحفظ والغموض.

رأينا في تعبده ﷺ قبل البعثة:

ونحن نميل مطمئنين إلى أن تعبده ﷺ في خلوته واعتزاله قبل مبعثه كان أساسه التفكر في آيات الله الكونية والتأمل في مظاهر الطبيعة ودلائل الإبداع الإلهي في نظام الوجود، وسيره على سنن متناسقة مقدرة، تدل على حكمة التدبير.

وكان في جانب منه قائمًا على أساس ما ثبت عنده ﷺ من معالم الحنيفية ملة جديه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، ودليل ذلك القاطع ما التزمه ﷺ من تعظيم الكعبة المشرفة والطواف بها على رغم ما كانت تعج به ساحاتها من الأصنام والأوثان التي كانت أبغض شيء إلى نفسه المطهرة، ولم يمنعه هذا البغض للأصنام والأوثان من التمسك بما ثبت عنده من شرعة تعظيم بيت الله المحرم الذي رفع قواعده جداه

إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

وهـذا التعظيم للبيت لم يكن من قبيل عبـادة التفكر التي أساسها سبحات العقل في مظاهر الكون وآياته الباهرة، وإنما كان مـن قبيل اتباع ملـة إبراهيم فيما عرف أنـه بقي منها في أعمال الناس وأذهانهم.

والعقـل فـي منطقـه بمعزل عن إدراك شـرعية هـذا التعبد وحكمتـه، فهـو تعبُّد عملي شـرعه الله في ملـة إبراهيم عليه السـلام، وعرفه محمـد ﷺ قبـل بعثته واطمأنت نفسـه إلى شـرعيته، فعبد الله به كمـا عبده بمحض التفكـر والتأمل في بديع جلال الكون وما أودع الله فيه من آيات حتى جاءه الحق، وبعثه الله رسـولاً إلى الناس كافة بشيرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسـراجًا منيرًا، على رأس أربعين سنة من عمره الشريف المبـارك، فصلـوات الله وتسـليماته وبركاته عليـه وعلى آله الأطهار، وأصحابه الأخيار ما تعاقب الليل والنهار.

***

خصائص محمد ﷺ في رسالته لا تزال منهلاً لأقلام المفكرين

ما كُتب عن محمد ﷺ أضخم تراث فكري كتب عن إنسان:

لم يحفظ التاريخ في سجلاته أن عظيمًا من عظماء الوجود في دنيا الإِنسان منذ كانت هذه الحياة كتب عنه الكاتبون، أو سجلت عنه الأحداث والوقائع مثل أو قريبًا مما كُتب أو سُجِّل عن (محمد رسول الله ﷺ) كمًا وكيفًا، وكثرة وتنويعًا.

فسيرته ﷺ في خصائص رسالته لم تزل - منذ بعثه الله رسولاً إلى كافة الناس - ميدانًا لأقلام الكاتبين، وأسلات ألسن الباحثين[٢٩]، ومنهلاً لأفكار عباقرة المفكرين، ومجالاً فسيح الأرجاء لأحداث الحياة ووقائعها، وموردًا لروّاد المعرفة من أفذاذ المؤلفين.

فقد كتب عنه ﷺ المؤمنون برسالته من العلماء والمفكرين، وحملة الأقلام من الباحثين، وتغنى بسيرته مداره الفصاحة من الأدباء[٣٠]، ومصاقع الشعراء[٣١]، ومفوهو الخطباء، مما استغرق أنفاس حياتهم في مدى ما

(٢٩) أسلة اللسان: طرفه المستدق. (المجلة)

(٣٠) مِدْرَهُ القوم: زعيمهم. (المجلة)

(٣١) المِصْقَع: البليغ المتفنن في القول. (المجلة)

مــر من دوران الفلــك، لا يفترون، ولا يستحســرون، تدفعهم أشــواق المعرفة إلى الاستزادة من الغوص في أعماق خصائص رســالته، ليكشفوا عن مآثر خلودها في آفاق شمولها، ومواقع عمومهــا، ويبينوا عناصر الفضائل في ســمو إنســانيتها حتى ودعــوا أقلامهم راحلين إلى الأبدية، ولمــا يبلغوا من الحديث عن هذه الخصائص نقطة الانطلاق في بداية مبلغها من الهداية وسمو الغاية.

وقــد حفــظ التاريــخ - راغمًــا على غيــر عادته مــع الأنبياء والمرســلين - مما كتبوا في ســجلاته شــيئًا يجل عن الحصر، والذي فقدته الحياة مما كتبوا أضعاف ما حفظه التاريخ.

كمــا كتب عنه الذين لم يؤمنوا برســالته ﷺ الكثير البالغ قبــولاً وإعجابًا، وردًا وانتقادًا، في دراســة باحثة متعمقة، مما حفلت به مكتبات العالم في شرق الأرض وغربها، لا سيما في أوربا منذ نهضتها الفكرية التي غزت بها الشــرق الإســلامي، وأرضعتــه أفكارهــا وثقافاتهــا، وعلومها ومعارفهــا، ومظاهر حضارتهــا، وأخلاقها وعوائدها، وشــعاراتها في الحياة، وهي تقود من وراء ذلك جيوشها وأساطيلها وتجاراتها، وصناعاتها وأموالهــا لتســتأثر بخيــرات هذا الشــرق، وتســتعمر أرضه، وتستعبد أهله.

ونظــرة في كتب الطبقــات وتراجم العلمــاء والباحثين من أئمــة المســلمين وأعلام مفكريهــم، تكفي لبيــان أن ما كتبه

المؤمنــون برســالته ﷺ كمًا وكيفًا، كثــرة وتنوُّعًا مما يفوق الحصر والحساب.

ونظرة في كتــب الفهارس قديمها وحديثهــا، ما كان منها باللغــة العربيــة أو ما كان منها بلغة غيــر عربية تكفي لإعطاء المتطلعيــن إلى المعرفــة أروع صورة في تقويــم وتقدير مبلغ ما كُتب في إطار الرســالة المحمدية، ممــا يمثل جلال الثروة الفكرية التي حظيت بها الحياة الإنسانية من آثار هذه الرسالة الخالدة.

ولــو لم يكن مــن آثار خصائصهــا الفكرية إلا هذا الحشــد التراثــي في مكتبــات العالم قديمًا وحديثًا شــرقًا وغربًا، وفي خزائــن العلم والمعرفــة التي يملكهــا الأفــراد والجماعات، والهيئــات والطوائف في شــتى بــلاد العالم -لكفــى في إبراز القيمــة الحقيقيــة لما بذلته الأقــلام من تســجيل وتدوين في مجــالات الفكر والعلم والفــن، والبحث فــي كل ما دار حول محور رسالة محمد ﷺ.

رسالة محمد ﷺ فتح فكري جديد:

وحسْــبُ الباحــث فــي باب الإيمــان بصدق ذلــك أن يتيح لعقلــه، بل لخيالــه تصور ما كُتب عن خصائص رســالة محمد ﷺ فــي هديها وإصلاحها، تصديقًا وتبيانًــا، وبحثًا وانتقادًا، وأخذًا وردًا، وجذبًا وشــدًا، وإذاعة ونشــرًا، ونقاشًــا وجدلًا، وحــوارًا وتحليــلًا، ودرسًــا وتحقيقًــا، ليؤمــن إيمــان إيقان،

ويعرف معرفة صدق أن رسالة محمد ﷺ كانت ولا تزال فتحًا جديدًا أمام الفكر الإنساني، أتاح له الانطلاق إلى لون جديد من المعرفة، لا يقف عند غاية، ولا تعرف الحياة له نهاية، ولا يتوقف أمام عقبات، ولا تحول دون انطلاقه حواجز، ولكنه يقتحم الآفاق، ويثب إلى ذروات الشموخ والتطلع، ويغوص إلى أعماق الكون وأسرار الوجود، متطلعًا إلى مزيد من العلم والمعرفة، وفي وقائع التاريخ ومشهود رواياته ما يؤكد صدق هذه الحقيقة.

وحادثة اندفاع جحافل التتار على عاصمة الخلافة الإسلامية في بغداد - بموجاتها الساحقة المدمرة واحدة من أحداث كثيرة حفل بها التاريخ - تُصوِّر مدى ضخامة ما كان من التراث الفكري الإسلامي في بغداد عاصمة الإسلام يومئذ، وهي واحدة من أخوات لها في أوطان المسلمين، في مجالات العلم والفكر والمعرفة.

وكان في مكتباتها من آثار أقلام علماء الإسلام ومفكريه وباحثيه، من المفسرين والفقهاء والمحدِّثين والمتكلمين والأصوليين واللغويين والأدباء والمؤرخين والناظرين في علوم الأوائل في الفلسفة والفلك وآثار الفرق والمذاهب والملل والنحل ما لا يمكن أن يحصره الحساب والتعداد.

وإذا ذُكرت (بغداد) بما كانت تحفل به مكتباتها العامة والخاصة من فنون المعرفة التي هي أثر من آثار الفكر في

خصائص رسالة محمد - ﷺ - ، فلا يمكن أن تغيب عن الذكر (القاهرة) و(قرطبة) و(دمشق) و(القسطنطينية) و(فاس) وغيرها من عواصم الفكر في سائر أقطار الإسلام وأوطانه.

وليس بأهون دلالة على صدق هذه الحقيقة التاريخية في تقدير ضخامة التراث الإسلامي الذي كُتب عن خصائص رسالة محمد ﷺ كمًا وكيفًا ما وقع على أيدي برابرة (الحضارة) الأوروبية الحاقدة في عواصم الأندلس، حينما تألبت عصبيات الحقد الأسود على الإسلام، منتهزة فرصة تميُّع الحكم الإسلامي وتفاهة الحاكمين باسم الإسلام في هذا الجانب من العالم الإسلامي، فمزقته شر ممزق، وفي غمرة هذا التمزق، وفي حومة هذا الضعف والهوان استولى أولئك الحاقدون، ومتعصبو الصليبية الحمقاء على ما كانت تعجّ به خزائن الفكر والعلم من آلاف الألوف من مؤلفات المفكرين والباحثين في شتى مناحي الفكر وجوانب المعرفة، فنهبوا منها ما نقلوه إلى بلادهم وأوطانهم، وأحرقوا منها ما أحرقوا في جنون حاقد، وحقد مجنون، وذهبت هذه الثروة الفكرية الضخمة مع مُلك الأندلس إلى متاهات الفناء والضياع.

والذي وقع من السلب والنهب والتحريق والتدمير في مكتبات عواصم الإسلام الكبرى وقع مثله وأعظم منه في مكتبات العالم وخزائن العلم التي كانت منتشرة في أنحاء العالم الإسلامي وغيره، عندما تعاوت ذئاب الفتن في داخل

الكيان الإسلامي على أيدي الزنادقة من القرامطة والزنج والباطنية والروافض، والدول التي قامت على أنقاض دول غلبتها على أزمة الحكم، فدمَّرت آثارها الفكرية والعمرانية، ومحت من صفحة الوجود آثار علمائها ومفكريها، وغيَّرت أوضاعها ونظمها الاجتماعية.

وعلى الجملة فكل أثر فكري يتصل بالإسلام من قريب أو بعيد فهو حصيلة من حصائل الأقلام والأفكار التي كانت خصائص رسالة محمد ﷺ معينها الذي تنهل منه وتعلّ.

ومن هنا كان كل ما كُتب ويُكتب في مجال البحث الإسلامي بأية لغة من لغات الأمم والشعوب على أية صورة من صور البحث هو في لبابه جانب من جوانب خصائص محمد ﷺ في رسالته.

فالذين كتبوا، والذين يكتبون في مستقبل الحياة عن (محمد رسول الله ﷺ) عاشوا ويعيشون في ظلال دائمة من نفحات الخلود في رسالته ﷺ التي لا ينضب معينها، ولا ينفد مدادها.

تنوُّع الكتابة عن محمد ﷺ في القرن العشرين

ولقد تضاعفت أضعافًا مضاعفة الكتابة عن رسالة محمد ﷺ في هذا القرن - الرابع عشر الهجري، العشرين الميلادي- ولا تزال في سمو وازدياد، وجرت أقلام الكاتبين والباحثين في الشرق والغرب من المسلمين وغير المسلمين بألوان

مـن البحوث وضروب من الدراسـات المختلفـة نوعًا وكثرة، تواردت بين كتابة علمية مؤمنة، صادقة الإيمان عميقة الإدراك والتهدِّي، وكتابة علمية مؤمنة ولكنها تتجر بالبحث، وتتملق الجماهيـر، وكتابة لا تجهل، ولكنها متعصبة كافرة تلحد في بحثها حاقدة سـيئة القصد متحيزة الهـوى، تروح وتجيء في أودية مـن الضلال، تنكـر المعروف وتعـرف المنكر، وتثير الشكوك والشبه وتعتصم بروايات الأباطيل الدخيلة تدعم بها أكاذيبها.

وكتابة كافرة جاهلة، تتبع كل ناعق، تنعب بالبهتان، بليدة التقليد، تساق بعصا العصبية العمياء.

وفي هـذه الكتابـات بألوانها واتجاهاتها كتابات دارسـة، مبسـوطة، فيها عمق وجدية في بعض جوانبها، وفيها سذاجة ضحلة في بعض نواحيها.

وفيها كتابات تعنى بالصور والشكل وزخرفة الإطار، تنسق اللمع البراقة من الأحداث مهتمة ببريقها، تنسيق بائع الورود ألوانها في الأصيص لتبهر الناظرين.

وهـذا اللـون مـن البحـث المنسـق المزخرف قـد يرضي إحسـاس قارئـه، ولكنه لا يرضي عقله، لأنهـا بحوث لا تبالي بالحقائق أن تجيء في إطارها أو لا تجيء.

وفيهـا كتابات تلفت نظـر الذين يعرضون عـن قراءة هذه البحوث في مظانها الأصيلة القديمة لصعوبة المسلك الكتابي

فــي تلك المظان، وعدم العناية بالتنظيم في أسـلوب القدامى مــن العلمــاء والباحثيــن، فتجذبهم هــذه الكتابات المنســقة بتنظيمهــا النســقي إلى القــراءة، وقد تدفع ببعــض القراء إلى حب الاستزادة والتعمق، وربما وقفت بكثير من القارئين على مهيع الإرشــاد إلى مفاتيح الهداية في الرســالة الخالدة، رسالة خاتم النبيين محمد ـ ﷺ ـ، وهذا اللون من الكتابة لا يشــبع نهم المستشــرف لمعرفة الحقائق، المتطلــع للبحث الجاد، ولكنها تفيده وتوجهه، وكأنها لافتة إعلان مضيء، يثير شوق القارئ إلى التطلع لمعرفة ما وراءها من حقائق فكرية، وأفكار علمية، وهذا ليس بالقليل من فوائد البحث ومنافعه.

وفيهــا كتابات أشــبه مــا تكون بســلعة غريبــة تعرض في (الســوق) تحت لافتة لامعة، فــإذا عركتها بيد فكرك لتختبر ما فيها من حقائق لم تجد إلا كلمات ملتقطة من هنا وهناك لا تُحلي ولا تُمِرّ.

ولا تــزال أقلام الباحثين والكاتبين تتســابق في مضمار خصائص محمد ﷺ في رســالته وهدايتها، متخذة طرائق شــتى مــن البحث فــي أســلوب يعتــدل أحيانًــا، ويتعرج أحاييــن أخــرى، وتختلف موضوعــات الكتابة فــي دائرة تلك الخصائص، وإن كانت كلها أشبه بالروافد التي تنبع من منبع واحد، وتســير في أودية مختلفة أشد الاختلاف، فبعضهــا وســيع مترامي الجوانب، وبعضهــا ضيق متقارب

الأطـراف، وبعضها عميـق غائص بعيد القـرار، وبعضها ضحـل قريب المسـتقر، ولكنها تنتهي كلهـا إلى مصب واحد، يرمي بزبدها وغثائها جفاء، ويمسك منها خصائل الحق، فيمزج بينها حتى يجعلها حقيقة واحدة، هي لباب الهداية وروح الرسالة في قيادة الحياة.

وإذا كان التـراث الإسـلامي الـذي اتخـذ من خصائص رسـالة محمـد ﷺ محـوره الـذي دار حوله بهـذه المثابة من الضخامـة والعظمة فماذا يكتب الذيـن يكتبون اليوم وغدًا عن هذه الرسالة، وخصائصها وسيرة صاحبها ﷺ؟ أتراهـم يجترُّون مـا يجتنون من ثمار أولئـك الكاتبين من القدامـى والمُحْدثين؟ أم إنهم سـيجدون لأقلامهم مراتع جديدة لم تنسرب إلى مروجها أقلام مَن تقدمهم؟ وحينئذ يكتبون في خصائص رسـالة محمد ﷺ وحقائقها، وفنون هدايتها جديدًا، يبرزون به كوامن من أسـرارها، وأسـرارًا مـن كوامن هدايتهـا، ويكتبون في خصائـص محمد ﷺ التي أعده الله بها جبلة وكسـبًا لحمل عبء هذه الرسـالة الشـاملة الخالدة، ويكتبون في كشـف الكثير مما توارى عن أعين الأقـلام الباحثة من هذه الخصائص وراء سـحب الإمـكان الزمنـي، واقتـدار العقـول تحت تأثيـر البيئات والمجتمعـات التي كان لهـا أثر في إبراز ما ظهر من تلك الخصائص.

خصائص محمد ﷺ كالشمس تعطي الحياة في كل يوم جديدًا:

أليست هذه الشمس التي تُشرق على الحياة في كل يوم بهيئتها وصورتها المتكررة، ويرى الناس منها أول ما يرون ضوءها الذي يكشف أسجاف الظلام، لتظهر أمام أبصارهم جوانب الحياة في تقلباتهم على هذه الأرض، ثم يحسون حرارتها الدافئة في خيوط أشعتها الملتهبة لا يعلم العامة منها أكثر من هذه الظواهر التي يفيدون منها في مختلف صوالحهم، وينتفعون بها في شتى منافعهم، في دائرة علمهم المحدود بمستوى ما بلغته معارفهم من حقائق الكون ومظاهر الطبيعة ومع ذلك كأنما هم منها في جديد عند إشراقة كل يوم، يرون ما لم يكونوا يرونه ولا أحسوه من قبل.

فإشراقها على الحياة في جانب من جوانب هذا الكوكب الذي يحيا فوقه الناس حدث واحد في كل وحدة من وحدات الزمن في اصطلاح الحياة، ولكنه يتراءى جديدًا يقبل على الأحياء والأشياء بتجدد الحياة وتقلباتها.

واحتجابها عن الحياة وراء الأفق في جانب آخر من جوانب الأرض حدث واحد في وحدة أخرى من وحدات الزمن، يُرى وكأنه جديد، وهو مقبل ومعه رهبة الليل وهدأته وسكونه، لتهدأ فيه الحياة، وتسكن حتى تستجمع عناصر حركتها مقبلة مع إشراقة الشمس من جديد بكل جديد، يتراءى أنه يُولد مع الشمس كل يوم في كل مكان تشرق من أفقه.

وهذا الجديد (المتكـرر) هو معترك أفكار العلماء والباحثين والمفكرين الذين لا يقفون مع ظواهر الأشياء في عناصر الكون، ولكنهـم يحاولـون أن ينفـذوا إلى مداخلهـا وأعماقهـا ليعرفوا حقائقهـا، فـلا يكتفـون -بما اكتفى بـه العامة- مـن رؤية ضوء الشـمس يرونه بأبصارهم، ولا يكتفون بحرارة أشعتها يحسونها بحواسهم، بل إنهم يجهدون في تعرف حقيقتها عن طريق تعرف خصائصها الذاتية التي تنشأ عنها هذه الظواهر.

وقد عرف العلماء والباحثون من خصائص الشـمس الذاتية الكثيـر ممـا قصـرت دون معرفتـه أنظـار العامـة بمداركهـا المحـدودة، وهذا الكثيـر مما عرفـه العلمـاء والباحثون هو الـذي يفتح أمامهـم في كل آن بابًا جديدًا مـن المعرفة والعلم بالمجهـول، وكل باب جديد يُفتح يكشـف عـن منافذ للعلم والمعرفة التي تتجدد على مر الزمان في سائر الأمكنة والأوطان التي يأرز إليها العلم بفنونه وآلاته[٣٢].

وهكذا كلما ازداد العلماء والمفكرون معرفة بحقائق الكون ازدادوا تطلعًـا إلى أبعد مما وصلـوا إليه من العلم بالمجهول، ولا يزال العلم يكشـف للفكر الإنِسـاني عـن جديد مجهول من خصائص الشـمس يزيده علمًا ومعرفـة بحقيقتها الكونية كنموذج لظاهرة كونية تمد الحياة بقوة الحيوية المخصبة.

(٣٢) يأرز: يأوي. (المجلة)

والشـمس لا تزال ـ مع تعمق البحث وزيادة العلم والمعرفة بخصائصها ـ هي الشـمس مشـرقةً وغاربـة، لا تنقطع عنها سـبحات الدراسـة والبحث، ولا يتوقف العقل الإِنسـاني عن النظر وراء ما يكشفه من خصائصها الكونية.

وهذه الشـمس التي يبذل العقل الإِنسـاني جهده في البحث عـن خصائصهـا الكونيـة ـ ولـن يصـل إلـى نهايتهـا ـ إن هـي إلا شُميسـة صغيـرة إلـى جانـب أمهاتهـا الشـموس الكبار من مجموعة النجوم السـابحة في فضاء الكـون، محجوبة بأبعادها الشاسعة، وعظمتها الهائلة عن مجال الإِدراك الحسي والعقلي، حتى يسـتطيع العلم ـ وهو سـيَّار لا يتوقف ـ بوسـائله المعروفة وغير المعروفة إبداع ما يشـق طريقه لإِخضاعها للنظر والدرس والبحث ليكشف عن خصائصها الكونية، وقد بدأ يعرف طريقه إلى أطراف المجهول، وهو دائب طموح إلى الوصول.

وهـذه الشـموس الكبـار العظـام التـي تعبر الوجـود بكل خصائصهـا الذاتيـة المجهولة في غير توقـف إن هي إلا ذرات من عناصر هذا الكون الهائل في هذا الوجود العظيم.

وإذا كانت هذه الشموس بعظمتها الكونية مشهودةً وغائبةً هـي ضياء الحيـاة المادية التي يعيش علـى ضوئها العالمون، وهم بعد ـ على دأب عالميهم وجدّ باحثيهم في تعمق الدراسة ـ لم يبلغوا من معرفة خصائصها الذاتية وآثارها الكونية ومظاهر عناصرها الطبيعية إلا الشيء القليل الضئيل.

محمد ﷺ شمس الوجود الروحي:

فمحمـــد ﷺ فـــي خصائص رســالته الخالـــدة، وخصائص إنســانيته الســامية هو شــمس الوجود الروحي في هذا الكون المحجب بغلائل الجلال الإلهي.

حــظ العامة منه حظهم من شــموس الوجود المادي، رأوا ضوء رسالته بأعين بصائرهم، فمشوا إلى نورها يستبشرون برحمتها، وأحسوا حرارة هدايتها فدلفوا لها يستظلون بعدلها.

والوجود الروحي الذي جعل الله تعالى محمدًا ﷺ شمســه هو القوة الربانية المنبثــة في ذرات الكون، تبث فيها الحياة، وتُحركهــا حركتها المقدرة في كتــاب الغيب، فلا تحيد عنها مسرعة ولا مبطئة.

فكمــا لا يــزال العلمــاء والمفكرون والباحثــون في جديد من شــمس هذا الوجود المادي الحسي، يكشفون كل يوم من خصائصها الكونية الشــيء بعد الشيء، فكذلك شأن العلماء والمفكرين والباحثين لا يزالون في جديد من خصائص رســالة محمد ﷺ وهدايتها، ولا يزالون في جديد من خصائص محمد ﷺ الروحية وشمائله الإنسانية التي أعده الله بها جبلة وتأدبًا، ليكون خاتم النبيين، ورسولاً إلى العالمين برسالة شاملة عامة خالدة، يجد فيها كل جيل في كل زمان وفي كل مكان مطالب حياته الروحية، ومجال عقله وتفكيره ونظام حياته وعيشــه، ووشائج علائقه في أفراده وجماعاته وأممه وشعوبه.

فمـا كُتب ومـا يُكتب عن رسـالة محمد ﷺ في شـمولها تشـريعًا وهديًـا، وعمومها زمانًـا ومكانًا، وأعصـرًا وأجيالاً، وفـي خلودها بمعانيها وحقائقهـا، وأنظمة الحياة في تقنينها وأحكامهـا، وحكمها ودعائم قيمها الروحية، وأسـلوبها في التعبيـر عن مقاصدها وأهدافها، ووسـائلها، وطرائق منهجها فـي التوجيه والإرشـاد لـم يسـجل إلا نقطة في خط الدراسـة والبحث.

ومـا كُتـب وما يُكتب عن شـخصية محمـد ﷺ في حياته وشـمائله وأخلاقه وخلائقه، وإبراز خصائصه الإنسـانية التي جبلـه الله عليهـا وأدَّبه بها لتكون عدته فـي اقتداره على حمل عبء رسـالته الخاتمة لرسـالات السماء، لم يأتِ ولن يأتيَ إلا على بعض معالم هدايته في رسـالته، وإلا على بعض خصائصه في إنسانيته، وما حباه الله به من الكمالات البشرية، لأنه اختاره رسولاً إلى كافة الناس في كافة الأزمنة والأمكنة والأحوال.

فـلا بـد إذن أن يكون لكل جيل من البشـرية فـي كلِّ زمان وفـي كل مكان، وعلى أيـة حال من العلـم والمعرفة حظُّه من رسـالته، وحظُّه منـه في دعوتـه وهدايته ومنهجه وشـمائله، مهمـا اختلفت بالناس مناحي الحياة وطرائق التفكير، ومهما (تطـورت) العلـوم والمعارف ووسـائلهما، ومهمـا تنوَّعت أسـاليب الحياة الاجتماعية في المجتمع البشري، ومهما بلغ العقل الإنساني من مراتب النضج في التفكير.

رسالة محمد ﷺ
تنصف النبوّة والأنبياء
وتردّ اعتبارها واعتبارهم

عنايـة القـرآن العظيـم والسُّـنة بالنبوَّة والرسـالات الإلهية:

جـاء الله تعالى برسـالة محمـد ﷺ خاتمة للرسـالات الإِلهيـة، فجعل من خصائصها ردّ اعتبـار النبوة وإنصافها من مظالم التاريخ البشـري، ووضعها في مكانها الصحيح من حياة الناس والأشياء.

والذيـن يقـرءون كتـاب الرسـالة المحمديـة: القرآن العظيـم، قـراءة درس وتدبُّر، وبحـث متعمِّق فـي معانيه وحقائقـه الكونيـة وعقائـده، وتشـريعاته، ونظمـه الاجتماعيـة، وأخلاقياتـه، ويقـرءون السـيرة النبوية في مصادرهـا الوثيقـة قراءة إمعان وإنصـاف، يعلمون أن هذا الكتـاب الحكيم، وهذه السـيرة الكريمة قد عُنيا أكثر ما عُنيـا في نصوصهما بالنبوة والرسـالات الإِلهية، فأشـادا بهما وأعظما شـأنهما، وجعلا معرفتهمـا والإِيمان بهما شطر الإِيمان الصحيح، فلا تكمل حقيقة إيمان مؤمن -في شـرعة هذا الكتاب الكريم، وفي هَدْي سُـنَّة نبيِّه الأمين- إلا بمعرفـة النبوَّة والإِيمان بها، وتقديرها حق قدرها، ولا

يكمل إيمان مؤمن إلا بمعرفة الرسالات الإلهية والإيمان بها، إيمانًا لا يفرق بين أحد من رسل الله، ولا يتعصب لأحد منهم.

ونظرة إلى قصص الأنبياء والرسل في القرآن الكريم، وفي أحاديث النبى ﷺ وعليهم، وما أنزل الله عليهم من عقائد التوحيد، والدعوة إلى إخلاص العبودية لله تعالى وحده، وعرض ما جرى لهم مع أممهم وأقوامهم وبيان ما كان في أقوامهم من رذائل الشرك والوثنية، ومنكرات الأخلاق، وسفساف الاجتماع، وتحذير الأنبياء والرسل لهم من عواقب هذه الخبائث، وإنذارهم بطش الله وبأسه، وما رمى الله به تلك الأمم من عذاب استأصل به الظالمين، وقطع به دابر المعاندين، كما قال الله تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (العنكبوت: ٤٠) - تبين مقدار العناية التي أضفاها القرآن العظيم والسنة المطهَّرة على النبوة ومكانتها، وعلى سيرة الأنبياء ومقام الرسالات والرسل من تعظيم وتقدير.

وقلَّما يجد الباحث سورة من سور القرآن المبين لا يجد

فيها ذكرًا للنبوة والأنبياء والرسل والرسالات، وقد يطول الحديث عن بعضهم في إسهاب تقتضيه المناسبة يكشف كثيرًا من أحداث التاريخ، كما في قصص نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، عليهم السلام، وقد يختصر الحديث عن بعضهم في إيجاز معبِّر أصدق تعبير، وفي القرآن سورة تسمى سورة الأنبياء.

منهج القرآن في الكلام عن النبوة والأنبياء:

والقرآن الحكيم لا يكرر الحقائق والمعاني، ولكنه يقصد إلى استكمال الحجة والموعظة عندما يتطلب جو الحديث تنويع البرهان والموعظة، فيذكر شيئًا مما جاء في موضع آخر من القصة، يجعله كالتمهيد ليضيف إليه ما لم يذكر هناك حتى تكتمل القصة في جوها ومناسبتها بما يقتضيه مقام الحديث عنها ومن هنا قال علماء البلاغة: "لكل مقام مقال".

بَيْد أن الذين يقفون في سفح البحث القرآني ممن ليس لهم القدرة على السبح في محيطه، لا يرتفع نظرهم إلى حقيقة الأسلوب البياني في هذا الكتاب المبين، ولكنهم يرون لأول نظرة عابرة أنهم أمام قصص مكرورة، وسِيَر معادة، وآيات مرددة، وهذا – عند التأمل في سياق كل قصة – يبدو خيالاً واهمًا، لا يركن إليه ويعتقده إلا من لم يكن له صبر على البحث لمعرفة الحقائق التاريخية في

سير الأنبياء والمرسلين، وإلا من لم يعرف وثيق الوشائج التي تربط بين رسالة محمد ﷺ بكافة نبوات الأنبياء وسائر رسالات الرسل عليهم السلام.

ألا ترى إلى هذا الكتاب الحكيم في صنيعه بقصة يوسف عليه السلام - وقد نزلت كما تقول روايات أسباب النزول - إجابة لطلب قصِّ القصة كاملة - فإنه لما استوفى أحداث القصة متكاملة في سورتها تحقيقًا للمطلوب، وإعجازًا للمعاندين، وتصديقًا للنبي ﷺ، لم يعد إليها في سورة أخرى من سوره إلا إشارة ورمزًا.

والقرآن الكريم وهو كتاب هداية وعبرة - في وزنه للحياة، وتقديره لحقائقها يقصد في قصص الأنبياء والرسل فيما يقصد إليه من معانٍ وحقائقَ إلى تنبيه العقول والأفكار إلى ما وقع فيه التاريخ البشري من غمط ظالم لأعظم حقائق الحياة، وتقصير متعمد فيما كان يجب أن يكون في موضع الصدارة من صحائفه.

النبوة لبنات في بناء الحضارة:

ومن ثَمَّ جعل القرآن الحكيم حديثه في عقائده وعباداته وتشريعاته وآدابه وأخلاقياته، ونظمه في بيان علاقات الناس الاجتماعية، متصلاً أكمل اتصال بسيرة الأنبياء والمرسلين، لأنهم جميعًا لبناتٌ في بناء الحضارة الإنسانية التي جاءت رسالة محمد ﷺ لتكميلها، كما

قال رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح الذى يرويه البخاري ومسلم من قوله ﷺ : «مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بنيانًا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلَّا وُضِعَتْ هذه اللبنة؟ : فأنا [هذه] اللبنة، وأنا خاتم النبيين» .

فهذا الحديث الشريف يضع النبوة في أفقها الواقعي من آفاق الحياة، ويضع حَمَلة لوائها من المُصْطَفَيْن لتلقي كلمات الله في ذروة بناة الحضارة الإنسانية التي تزاوج بين المادة والروح، مزاوجة يكتمل بها أثر كل منهما بأثر الآخر، حتى كأنهما حقيقة واحدة، هي التي تصنع الحياة، وتبني الحضارة الفكرية والمادية في صورة إنسانية موحدة الإحساس والشعور والاتجاه .

فالحضارة الإنسانية، أو الحياة الإنسانية المهذبة - في معنى هذا الحديث - بناء وَضَعَ كلٌّ نبي من الأنبياء وكل رسول من الرسل لبنةً في صرحه حتى استقام مشمخرًا سامقًا في أجواز الحياة(٣٣)، مزيَّنًا مجمَّلاً إلا موضع لبنة في زاوية من زواياه لم توضع، وبقي مكانها فارغًا، ينقص من إعجاب الناس بالبناء وهم يطوفون به في (أطوار

(٣٣) اشمخرَّ: علا. (المجلة)

الحياة) ودورات الفلك، ويتمنون لو أن هذه اللبنة جاءت بحقيقتها وصورتها لتوضع في موضعها ليتكامل حُسن البناء ويتم الإعجاب به، وجاءت اللبنة بحقيقتها الجامعة لكل ما في لبنات البناء من طبيعة ذراتها، فكانت دُرَّةَ البناء الفريدة، وهي محمد ﷺ في رسالته الخالدة الخاتمة.

وفي حديث آخر يرويه مالك في الموطأ ويرويه أصحاب السنن يقول النبي ﷺ مبينًا ما قدَّمه إخوانه أنبياء الله ورسله للحياة من إصلاح وتقدم يقوم على القيم الروحية والفضائل الخلقية، ومبينًا مكانته منهم في رسالته الخاتمة، مكملاً ما أسَّسوا وما أقاموا من حضارات إنسانية: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق".

وفي هذا الحديث يبين النبي ﷺ أن بناء الحضارة الذي أقامته النبوة بكلمات الله ووحيه ليس بناء ماديًا كأبنية الناس في حضاراتهم المادية، ولكنه بناء روحاني يقوم على دعائم الأخلاق والفضائل ومحاسن الشيم والشمائل التي شيدوا بها بناء الحضارة الفكرية والاجتماعية.

وقد أبان الحديث عن عمل النبوة باعتبارها الحقيقة العظمى المسيطرة على التفكير في إقامة صرح البناء الحضاري، بإسهام كل نبي وكل رسول في إرساء هذا البناء حتى جاء محمد ﷺ وكمَّله برسالته الخالدة الخاتمة.

وهذا المعنى الذي أبان عنه الحديث هو إجمال لمعنى

الحديث الأول، وفيه بيان المعاني والحقائق التي أقيم بناء الحضارة الإنسانية من لبناتها.

النبوة والرسالة أعظم وأقوى دوافع التطور الاجتماعي:

والنبوة في عمومها حَرِيَّة أن تكون بمنزلة من التاريخ البشري ترفعها فوق كل منزلة من منازل حقائق الحياة وفضائلها، ورسالات الله تعالى إلى الناس لإخراجهم من ظلمات الضلالات إلى نور الهداية جديرة أن تكون بموضع من مسيرة الإنسانية، يسمو بها إلى أرفع مكان في ذروة تاريخ الحياة.

بَيْدَ أن التاريخ البشري لم ينصف النبوة، وهى أعظم مراتب الحضارة الفكرية، ولم يعط الرسالات الإلهية حقَّها من التقدير، وهي أجلّ صور الحياة في العلم والمعرفة، بل هي أبلغ وأقوى وأثبت دوافع (التطور) الاجتماعي في حياة الإنسانية.

نستعرض التاريخ منذ بدأ يكتب ويسجل أحداث الحياة في المجتمع البشري، فنجده شُغِلَ - حتى أُتْخِمَ - بالفلسفة الوضعية التي هي في كثير من موضوعاتها وقضاياها حصيلة العقل الإنساني - وقد كان هذا العقل في مهد الطفولة الفكرية، لا يزال يحبو - وحصيلة الهَوَس الخيالي الجامح في كثير من مسائلها وبحوثها التي شغلت

بجدلها العقيم قسطًا كبيرًا من عمر الحياة، وكانت هذه الفلسفات تعج بأوضار الوثنيات التي كانت أساسًا لما يسمى (الفن)[٣٤] ولا سيما في دائرة التصوير المجسم والنحت.

لقد مضى على هذا العقل الإنساني وهو يُفكر ويُنظِّر ويتحرك عشرات الألوف من السنين، ولكنه لم يصل إلى شيء في قضاياه التي استقل بها من شئون الحياة والكون، بل إنه زادها تعقيدًا وشتاتًا، ولم يستطع أن يحسم رأيًا فيما شارك فيه من شئون هذه الحياة ولم يقوَ على البتّ في قضايا الغيب التي جاءت النبوات بحقائقها إخبارًا عن واقع مشهود، لأن النبوات تطير إلى هذا الغيب بأجنحة الوحي، وتتلقى عن الله تعالى خالق الغيب والشهادة. والعقل تَعَبَّدَ للحسّ وجعل منافذه وسيلته إلى إدراك الحقائق، والحِسُّ محدودُ الجوانب إذا تعداها سقط في هاوية الجحود والتشكيك.

ولو أن هذا العقل خفَّف من غلوائه واستقام على نهج النبوة يهتدي بهديها في موازين إدراكاته لكان له اليوم مع الحياة شأن غير شأنه الذي يعيش به، ويقود الحياة بزمامه، ولا يدري أحد ما تكون نهاية هذه القيادة القاصرة

(٣٤) الأوضار جمع وضر. وهو الوسخ. (المجلة)

عن إدراك كثير من حقائق الحياة.

وكان بحَسْب العقل أن يتفقه فيما يقال له من وحي النبوات مما هو وراء الحس المادي، ويلائم بين مدركاته المادية وحقائق الوجود الكونية العظمى، ليظفر بلون من الشفافية والإشراق، يتيح له من معارف الغيب وحقائقه ما يتحرر به من أغلال الحس ومنافذه.

الوثنيات شَغَلت التاريخ بأوضاعها المادية:

وإلى جانب شَغْلِ التاريخ بالفلسفة الوضعية بجانبيها نجده شُغِلَ بالمظاهر المادية في سائر جوانب الحياة، وملأ كثيرًا من صفحاته بالحديث عن آثار الوثنيات وأصنامها وتماثيلها وأساطيرها وخرافات أهلها، وتناسى النبوة وآثارها الفكرية والروحية وقيمها الأخلاقية، وتناسى الرسالات الإلهية وأثرها في دفع عجلة الحضارة الإنسانية إلى التقدم الأدبي والرقي الفكري والسمو الخلقي، وحفاظها على القيم الأصيلة في توجيه العقل، وأقوم الطرق في (تطور) الفكر.

فكم من صفحات هذا التاريخ البشري الظالم -منذ كان- شَغَلَها تاريخُ النبوة! وكم من صفحات هذا التاريخ شغلها عمل الرسالات الإلهية في تقدم المجتمع البشري! إنها أقل من القليل.

قد يُقْبَل في منطق الوثنيات وفنونها الأسطورية أن يشغل التاريخ البشري - وهو من أوضاع تلك الوثنيات - عن

العناية بالنبوة والرسالات الإلهية، ويتعوض عنها الأباطيل والخرافات وأساطير الوثنيات عند الإغريق والفراعنة والكنعانيين، ومن إليهم من الأمم الراسبة في قاع حمأة الوثنيات، لأن النبوة إنما جاءت لتصحح أوضاع الحياة التي شوَّهتها الوثنيات بأباطيلها، وذلك بالقضاء على منطقها المهلهل، لتقيم صرح العقيدة التوحيدية التي تحرر الحياة من عبودية الأحجار والتماثيل تحت عنوان (الفن).

ولكن الذي لا يقبله منطق العقل المستقيم أن يتغلب منطق هذه الوثنيات المتهالكة على عقول الذين أوتوا منطق التوحيد على ألسنة الأنبياء والرسل، ونزلت عليهم كتب النبوات وأسفار الرسالات الإلهية، فبدلوا كَلِمَها طواعية وعنادًا، وحرَّفوا آياتها قصدًا إلى أحط منطق في تاريخ الوثنيات.

فهذه التوراة كتاب موسى نبي الله ورسوله وكليمه، وهذا الإنجيل كتاب عيسى نبي الله ورسوله وروحه وكلمته، وهما اليوم بأيدي أخلاف من أوتوهما، فليرم إلى أي منهما أيُّ عاقل بنظره، ليقرأ في صفحاتهما أحطَ ما يمكن أن تصور به الوثنية من بَهْت للنبوة والرسالات الإلهية في تصوير حياة أنبياء الله ورسله.

لم يكتفِ التاريخ البشري في إهماله أمر النبوات والرسالات الإلهية ليتعوض عنها بهذه الوثنيات

وأقاصيصها، بل أضاف إليها - ليستغرق في ضلالاته - أنباء الطغاة من سفاكي دماء البشرية ومدمري عمران الحياة، ومخربي بناء الحضارات الإنسانية، من أضراب الإسكندر المقدوني، وهانيبال، وبختنصّر، ونابليون، فجعل من أحاديثهم في معاركهم الظالمة أقاصيص الإعجاب ومفاخر البطولة، وهي في حقيقتها نزوات من الطغيان الأحمق الذي يرقص على طبول الخراب.

هذا التاريخ الظلوم المظلوم حمل على كاهله طوال أحقاب ما مرَّ عليه من دورات الفلك أثقال الوثنيات بكفرياتها وإلحادها ومذاهبها، وأفكارها وأساطيرها، وآثارها المادية في تفصيل مسهب، بل في مبالغة وإغراق وأكاذيب، ولم يسمح بأسطر يكتبها في سجلاته عن النبوات والرسالات الإلهية إلا بقدر ما يصلها بهذه الوثنيات في معاركها معها ونضالها ضدها.

أما بيان مكانة النبوة من الحياة، وبيان أعمالها في توجيه الحياة، وتهذيب الغرائز، وإرشاد العقل في سيره، وبيان ما يطيق إدراكه من معالم الغيب وحقائقه، وبيان أقدار الرسالات الإلهية وجهاد الرسل في سبيل تقدم الحياة، وإقامة موازين العدالة، وإصلاح ما أفسده الطغاة بطغيانهم ومظالمهم، وكفاح البطولات الروحية، واصطبار المكافحين من الأنبياء والمرسلين وأتباعهم من

المؤمنين برسالاتهم على محن الجبروت وبلاء الطغيان، وفدائح الظلم - فأمر لا يُعنى هذا التاريخ البشري أن يفرد له بين صفحاته قدرًا يعطيه حقه من التقدير والاعتزاز.

التاريخ يُصوِّر النبوة عُزلة روحية:

وقد صوَّر التاريخُ النبوةَ والرسالات الإلهية في أسطره التي سمح بها في سجلاته للحديث عنها وعن حَمَلَتِها من المُصْطَفَيْن على أنها مرشد لمن يريد اعتزال الحياة، ليعيش روحانيًا قانعًا زاهدًا، قعيد الكهوف والصوامع، جوعان ذا مسغبة، عريان ذا متربة، سموحًا لا يزاحم في معترك العيش، خانعًا في ذلة، مستسلمًا لنوازل الحياة، شرودًا نفورًا، يحيا ويموت دون أن تحسّ به الحياة.

والتاريخ بهذا التصوير الظالم يضع النبوة والرسالات الإلهية في إطار من الصوفية السلبية، لا تَعني الحياةَ في شيء، ولا تعنيها الحياةُ في شيء.

ومن هنا نشأت فكرة (الدين والدنيا).. فالدين - عند هذا التاريخ الظلوم - هو السلبية الصوفية التي تعيش مع خيالات الأوهام، وأوهام الغيبيات، التي لا تُحسّ ولا تُمس، والدنيا - عند هذا التاريخ - هي كل المعاني والحقائق الإيجابية التي قامت على دعائمها فلسفة الوثنيات والإلحاد الفني، والتفكير المادي الكفور، وعلى أساسها قامت الحضارات المادية بكل أسوائها ومحاسنها.

رسالة محمد ﷺ تُصحّح أغلاط التاريخ:

وجاءت رسالة محمد ﷺ الخاتمة الخالدة لتصحح أغاليط التاريخ وتنصف النبوة والرسالات الإلهية، وترد اعتبار الحقائق الكونية، فوضعت هذا التاريخ في مواجهة النبوة وأحداثها، ووضعت الحياة كلها أمام الرسالات الإلهية وأعمالها، ووضعت الوثنيات وفلسفاتها في مكانها من منازل الجحود، فلم يستطع التاريخ بعد بعثة محمد ﷺ أن يلوي عنقه مشيحًا عن الحديث في النبوة ومكانتها في دنيا الناس والأشياء، ولم تستطع الحياة أن تُنْغِضَ رأسها متجاهلة مكانة الذين شُرِّفوا بقلائد النبوة مِن المُصْطَفَيْن الأخيار، ولم تستطع الحياة أن تُصعِّر خدَّها متغافلة متعامية عن أشعة الحق في رسالات رسل الله الذين بعثهم إلى الحياة نورًا يبدد ظلام القلوب والعقول والأرواح، ويهذب جموح الغرائز الإنسانية الضارية، ويشذِّب أشجار الأفكار الشائكة بشبهات الجهالة وأغلوطات الضلالة في أدمغة أحلاس هوس الفلسفة بما لا يعني شيئًا غير برطمة التعالي[٣٥]، وبأو الكبرياء المبرطمة في ألغاز مريبة غامضة، وألفاظ مظلمة قاتمة، تسبح في محيط خيالي لا مرفأ له، تستقر فيه حقيقة من حقائق الحياة في واقعها الوجودي الذي جاءت به النبوة

---

(٣٥) برطم: قطَّب وتغضَّب.

والرســالات الإلهية، وعرفت الحياةُ للدين معناه الشــامل القويم الذي يعنــي المعاني والقيم والحقائق الإيجابية في منهج النبوة والرســالات الإلهية، وعرفت الحياة ألا تقابل بين الدنيا والدين، وإنما التقابل الحق بين حياتين، (هذه الحياة) التي يحياها الناس والأشياء، وللدين فيها منهجه الأعم الأشــمل، الذي اســتقاه من معين النبوة والرسالات الإلهيــة، (وحياة آتية) لا ريــب فيها، وللدين فيها معرفته التي تلقَّاها عن وحي النبوة ورسالات الله.

***

الفهرس